بلاغة الاستفهام في فواتح السور القرآنية

إعداد

الدكتور / على عبد الموجود نور الدين

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب، والصلاة والسلام على خاتم الرسل وخير العباد، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الحساب وبعد..،

فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد، ودستور هداية العباد الدائم، وسر السماء العلىّ البيّن، "فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول" (١).

ولا يزال علماء هذه الأمة يبذلون الجهد الجاهد في دراسة هذا القرآن العظيم، وتدبر ألفاظه، واستخراج معانيه، واستكناه أسراره وتلمس مقاصده ومراميه.

وهذا من منطلق الواجب والنصيحة لكتاب الله تعالى، والتى تقتضى أن تصرف العناية التامة، والجهد المخلص إلى إتقان فقه هذا البيان العلىّ، والمثابرة على الغوص في أعماق ألفاظه وتراكيبه ومعانيه.

ومن هذا المنطلق أيضاً تأتى هذه الدراسة : "بلاغة الاستفهام في فواتح السور القرآنية"، محاولة كشف الأسرار البلاغية في ابتداء تلك السور بالاستفهام، وبيان معانى الاستفهام في صدر كل سورة، وعلاقة ذلك بمقصودها ومعانيها، وتجلية الروابط المعنوية التى تجمع تلك السور، مما يعين على فهم البيان القرآنى، والعمل بمقتضى هذا الفهم.

وغنى عن البيان أن جميع فواتح سور القرآن وخواتمها قد بلغت الدرجة القصوى في الحسن والكمال، والبلاغة والبراعة، وذلك لما تحويه من فنون المعانى، ولطائف الإشارات (٢)، ومن ثم كان البحث في بلاغة الفواتح والخواتم والكشف عن أسرارها مما يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص٣٠، ط.المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٢) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى (ت١١١٠هـ) ٥٤٥/٤، ط.دار السرور، بيروت، (ضمن شروح التلخيص).

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج البلاغي في العرض والتحليل لأسلوب الاستفهام ومتعلقاته في صدر كل سورة، وذلك على النحو التالي :

أولاً : قدمت دراسة موجزة لأقوال أهل العلم في الاستفهام، ومعانيه وقيمته الفنية، وفي الاستفهام القرآني ومسالكه، وفي فواتح سور القرآن الكريم.

ثانياً : تحليل جملة الاستفهام ومتعلقاتها تحليلاً بلاغياً يقوم على تجلية السياق وبيان الأغراض والمقاصد ، وتحليل التراكيب اللغوية، لننفذ من كل ذلك إلى الكشف عن خصوصيات المعاني، وأحوالها وأشكالها، التي هي صنعة البيان، وجوهر البلاغة وجوهر درسها[1].

ثالثاً : رصد الفروق بين الصياغات المتقاربة، وبيان الاختلاف بينها مستعيناً في ذلك بدراسة السياق والمقام الذي وردت فيه.

رابعاً : بيان ما يتمازج مع أسلوب الاستفهام من أنماط تركيبية وأساليب بلاغية أخرى.

خامساً : بيان أثر القراءات القرآنية في الكشف عن جوانب المعاني .

سادساً : تلخيص أبرز الأساليب والخصائص البلاغية، وذلك في نهاية كل مبحث .

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تظهر في مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة .

المقدمة : ذكرت فيها أهمية الدراسة، وغايتها المرجوة، ومنهجها، وخطتها .

الفصل الأول : دراسة موجزة لأقوال أهل العلم في الاستفهام والفواتح .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : حقيقة الاستفهام وأدواته، ومعانيه، وقيمته الفنية.

المبحث الثاني : الاستفهام القرآني ومسالكه.

المبحث الثالث : فواتح السور القرآنية.

الفصل الثاني: بلاغة الاستفهام في فواتح سور (الإنسان ـــ النبأ ـــ الغاشية).

---

(١) ينظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر د/محمد أبو موسى ص ١٥، ط.الأولى، ١٤١٨هـ مكتبة وهبة.

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الإنسان.

المبحث الثاني: بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة النبأ.

المبحث الثالث: بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الغاشية.

الفصل الثالث : بلاغة الاستفهام في فواتح سور (الشرح – الفيل – الماعون).

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الشرح.

المبحث الثاني: بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الفيل.

المبحث الثالث: بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الماعون.

وقد ختمت الدراسة بذكر أبرز نتائج هذه الجولة المباركة في رياض البيان القرآني .

وبعد : فهذا الجهد، قصدت به وجه الله تعالى والنصيحة لكتابه المبين، راجياً منه تعالى القبول والسداد. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الفصل الأول

دراسة موجزة لأقوال أهل العلم في الاستفهام والفواتح

قبل الإبحار في أسرار البيان العليّ من خلال التأويل الجمالي والبياني لمواقع أسلوب الاستفهام في فواتح السور القرآنية؛ وما يثيره من دقائق الفكر ورقائق القلب، يجدر بنا أن نتزود من أقوال أهل العلم عن الاستفهام : حقيقته وأدواته، وطبيعة المعاني التي يفيدها، وطرق إفادتها، وعن الاستفهام القرآني ومسالكه، والمقصود بفواتح السور القرآنية، ودلالاتها على مقاصد السور، مما هو ضرورة لمسيرة التأويل الجمالي على صراط مستقيم .

المبحث الأول

حقيقة الاستفهام وأدواته، ومعانيه، وقيمته الفنية

حقيقة الاستفهام :-

كلمة "استفهام" بزنة "استفعال"، والسين والتاء فيها للطلب، وهذا يعني أن معناها : طلب الفهم؛ كما أن الاستغفار : طلب المغفرة، والاستخبار: طلب الخبر[١].

فالمطلوب هو الفهم، "والفهم يعنى حصول صورة المراد فهمه في النفس وإقامة هينته في العقل، وهذا هو الذى قاله البلاغيون في تعريف الاستفهام"[٢].

فهو "طلب حصول صورة الشيء في الذهن"[٣].

فالاستفهام أحد ألوان الإنشاء الطلبي.

والصورة المطلوب حصولها ــ أى إدراكها ــ في الذهن؛ "إن كانت وقوع

---

(١) من العلماء من جعل الاستخبار بمعنى الاستفهام، ومنهم من فرق بينهما،، يقول الإمام الزركشي ــ رحمه الله ــ (ت٧٩٤هـ): " الاستخبار وهو طلب خبر ما ليس عندك وهو بمعنى الاستفهام أي طلب الفهم ومنهم من فرق بينهما بأن الاستخبار ما سبق أولاً ولم يفهم حق الفهم فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً. حكاه ابن فارس في "فقه اللغة" "[البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٢٦/٢ بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية-صيدا-بيروت] . وينظر: الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) / ص ٢٩٢ – تحقيق السيد أحمد صقر – مطبعة عيسى الحلبي – القاهرة – ١٩٧٧م.

كما فرق ابو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) بين الاستفهام والسؤال، بأن الاستفهام لا يكون إلا عن جهل أو شك من المستفهم، أما السؤال فقد يكون عن جهل بما يسأل عنه أو علم به . [الفروق في اللغة / لأبي هلال العسكرى ص٢٨ – الطبعة الرابعة – ١٤٠٠هـ – بيروت].

ويستطيع المتأمل أن يدرك أن طلب الفهم أعلى منزلة من طلب الخبر فالإخبار يطلق على إيصال الكلام إلى آخر وإن لم يعقل السامع منه شيئا، والإفهام لا يطلق إلا على درجة من المعرفة والعلم والإدراك والوعي للكلام [ينظر : الاستفهام القرآني دقائق ورقائق – د. محمود توفيق محمد – مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الخامس – ص١٩٨ – ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٢) دلالات التراكيب – دراسة بلاغية للدكتور/ محمد محمد أبو موسى / ص ٢٠٣ – ٢٠٤ مكتبة وهبة / الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

(٣) مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح ٢٤٦/٢ "ضمن شروح التلخيص" – ط. دار سرور – بيروت – لبنان.

نسبة في الخارج أو لا وقوعها، بمعنى : أن وقوع النسبة هل هو محقق خارجاً أو لا؟ فذلك المطلوب تصديق؛ وإن لم تكن تلك الصورة تحقق الوقوع، بل تصور الموضوع، أو المحمول المستلزمين غالباً لتصور النسبة بينهما فالمطلوب تصور»[١].

فالتصديق : طلب حصول النسبة التامة بين شيئين بتحقق وقوعها خارجاً، وفي ضمنه انقياد الذهن لتلك النسبة»[٢].

كقولك في طلب التصديق بمضمون الجملة الفعلية: أقام زيد؟[٣].

فقد تصورت القيام وزيداً والنسبة بينهما، وسألت عن وقوع تلك النسبة خارجاً ، فإن قيل: قام، حصل ذلك التصديق.

وفي طلب التصديق بمضمون الجملة الاسمية: أزيد قائم ؟

فقد تصورت – أيضاً – الطرفين، والنسبة، وسألت عن وقوعها خارجاً، فإذا قيل : هو قائم، حصل التصديق.

ويستعمل في طلب التصديق بمضمون الجملة الفعلية أو الاسمية من أدوات الاستفهام ، الهمزة، وهل ؛ وهما حرفان.

أما "الهمزة" : فيطلب بها التصديق بمضمون الجملة الفعلية أو الاسمية – كما سبق – ؛ كما يطلب بها التصور لأحد أجزاء الجملة كما سيأتي .

---

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٤٦ – ٢٤٧ (ضمن شروح التلخيص).

(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٤٧.

(٣) يحتمل أن تكون هذه الجملة الاستفهامية لطلب التصديق؛ وأن تكون لطلب تصور المسند؛ وأن تكون لطلب تصور المسند إليه. فالمعنى على الأول: أقام زيد أولا، وعلى الثاني: أقام زيد أم قعد؟، وعلى الثالث: أقام زيد أم عمرو؟ وكذلك : أزيد قائم؟ تجرى فيه الاحتمالات الثلاثة. غير أن الظاهر أن الاستفهام عن التصديق؛ لأن النسب هي الجديرة بالاستفهام، ولذلك كان إيلاء الفعل لهمزة الاستفهام وتأخير الاسم أولى من العكس [ينظر عروس الأفراح للسبكي ٢/٢٤٩]. ومن ثم قالوا دخول الهمزة على الجملة الفعلية أكثر [حاشية الدسوقي على شرح السعد ٢/٢٤٨ (ضمن شروح التلخيص)].

وأما "هل" فلا يطلب بها التصديق بمضمون الجملة الفعلية، أو الاسمية الصدر والعجز؛ تقول في طلب التصديق بمضمون الجملة الفعلية: هل قام زيد؟ وفي طلب التصديق بمضمون الجملة الاسمية: هل عمرو قاعد؟ فأنت تسأل عن وقوع نسبة القيام لزيد، ونسبة القعود لعمرو خارجاً، فإذا قيل لك: قام، وقاعد؛ حصل لك التصديق.

وإدراك وقوع النسبة أو اللاوقوعها كما يسمى تصديقاً، يسمى – أيضاً – حكماً، وإسناداً، وإيقاعاً، وانتزاعاً، وإيجاباً، وسلباً[١].

وعلماء البلاغة حين يتحدثون عن الاستفهام يقدمون الجملة الفعلية على الاسمية ، لما بين الاستفهام والفعل من الارتباط والتعلق.

فالاستفهام مطلقاً له نوع اختصاص " أى ارتباط وتعلق" وبالفعل .

وقد قرر البلاغيون أن النسب هي الجديرة بالاستفهام؛ ولذلك كان إيلاء الفعل لهمزة الاستفهام وتأخير الاسم أولى من العكس[٢].

وأن دلالة الفعل على نسبة حقيقة لأخرى أظهر من دلالة غيره؛ لأنه إنما وضع ليدل على نسبة حدث لغيره، بخلاف الاسم فإنما يدل في الأصل على الذات؛ أى الحقيقة ، والحقيقة من حيث هي لا نسبة فيها تعتبر الثبوت والنفى ، ولهذا يقال : إن الأفعال هي التى تثبت وتنفى؛ أى نسبتها هي التى تثبت وتنفى؛ بخلاف الأسماء فهي تدل على الذوات ، أى الحقائق ، ولا يعرض لها ثبوت عن الغير أو سلبها عنه إلا باعتبار النسبة التى دلالة الفعل عليها أظهر[٣] .

ومن ثم كان الاستفهام أحق بالجملة الفعلية ، وكان دخول "الهمزة" على الجملة الفعلية أكثر، و تعلق "هل" – التى لا يطلب بها إلا التصديق – بالفعل ودخولها

---

(١) ينظر: حاشية الدسوقى ٢/٢٤٧.

(٢) عروس الأفراح للسبكى ٢/٢٤٩ (ضمن شروح التلخيص).

(٣) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢/٢٦٨.

عليه أزيد وأكثر من دخولها على الاسم[1].

والتصور : هو إدراك غير النسبة الإيقاعية أو الانتزاعية، بمعنى: أن إدراك أن النسبة القلانية واقعة أو ليست بواقعة تصديق، وإدراك ما سوى ذلك من موضوع، ومحمول، ونسبة هي مورد الإيجاب والسلب تصور[2].

فطلب التصور ثلاثة أقسام:

فالأول: طلب تصور المسند إليه "الموضوع"، كقولك: أدبس[3] في الإناء أم عسل؟ فأنت عالم بوقوع النسبة "حصول شيء في الإناء"، ولكنك تجهل الحاصل الذى هو المسند إليه، ومن ثم تطلب تعيينه، فإذا قيل – مثلاً – عسل، تصورت المسند إليه المتصف بكونه في الإناء، بأنه عسل.

الثاني : طلب تصور المسند "المحمول" كقولك: أفي الدار عمرو أم في المسجد؟

فإنك قد علمت وجود عمرو، وجهلت المكان الذى يوجد فيه، الذى هو المسند ، "ويلزم من الجهل بالظرف الجهل بما يتعلق به بخصوصه فسألت عنه" فإذا قيل في الجواب: هو في المسجد – مثلاً – تصورت المسند، الذى هو كون عمرو موجوداً في المسجد.

الثالث : طلب تصور النسبة بين الطرفين، من غير طلب وقوعها أو لا، وهذا القسم لم يمثل له، لأن طلب تصور الطرفين يغنى عنه[4].

وبذا يتبين لنا أن عناصر الجملة يصلح كل واحد منها أن يكون مقصوداً بالسؤال وتحصيل صورته، كالمسند إليه، والمسند، وما يتبعه من تعليقات وقيود، كالمفعول، والجار والمجرور، والحال، والظرف، وما شابه ذلك؛ لأن هذه كلها داخلة في هيئة المعنى وتحديد صورته[5].

---

(١) ينظر: حاشية الدسوقي ٢/٢٤٨، ٢٦٦.

(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٤٨.

(٣) الدبس: هو شراب حلو يتخذ من التمر أو العنب. لسان العرب لابن منظور، مادة "دبس" ٦/٧٥، ط.دار الفكر، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٤) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٤٨، ٢٤٩.

(٥) ينظر: دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢٠٤.

أدوات الاستفهام :

ونستطيع أن نتبين مما سبق أن أدوات الاستفهام منها ما هو حرف: كالهمزة ، و" هل"، ومنها ما هو اسم تضمن معنى الحرف "كبقية ألفاظ الاستفهام".

ومنها – أيضاً – ما هو خاص بأشياء معينة فلا يسأل به عن غيرها، ومنها ما هو صالح لأن يسأل به عن كل شيء:

فالهمزة وحدها هى التى يسأل بها عن كل شيء في الجملة، ومن ثم كانت هى أم الباب، وهي الأعم، ولذا قدمها العلماء على غيرها، وقد تميزت بكثرة استعمالها في القرآن الكريم، وعند فصحاء العرب.

و "هل" لا يسأل بها إلا عن النسبة[1] "التصديق"، وتدخل على الجملتين الفعلية والاسمية لطلب التصديق خاصة.

أما بقية أدوات الاستفهام، فكل واحدة منها يسأل بها عن تصور شيء معين، أى أنها تستعمل في طلب التصور فقط.

فيسأل بـ (ما) عن الجنس، أو عن الوصف[2].

ويسأل بـ (من) عن الجنس من ذوى العلم، ويسأل بـ(أى) عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما ، ويسأل بـ(كم) عن العدد، وبـ(كيف) عن الحال، وبـ(أين) عن المكان، و بـ(متى) عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً، وبـ(أيان) عن الزمان المستقبل، قيل: ويستعمل في مواضع التفخيم، و(أنى) تارة يستعمل بمعنى "كيف" ويجب أن يكون بعده فعل، نحو قوله تعالى:﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾

---

(١) النسبة : هي "هذا الخيط من العقل والحس، والذى يجرى وراء الكلمات ويربط بعضها ببعض ويجعل كل واحدة منها بسبب من الأخرى، وهو محض الكلام، وهو ناطقيه الإنسان أى عقله، والمجنون لا يستطيع أن يجرى هذا الخيط ولا أن يقيم العلاقات السوية، وإنما ترى في كلامه تخاليط ... فكل عروة بين كلمتين تسمى نسبة أو علاقة، والسؤال عنه يسمى تصديقاً ".[ينظر: دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢٠٤].

(٢) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣١٠،تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، وينظر ص ٣٤ من هذا البحث.

أى على أى حال، ومنَ أى شق أردتم بعد أن يكون المأتى موضع الحرث، كما يستعمل بمعنى "من أين" نحو قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧] أى من أين لك هذا الرزق الآتى كل يوم[١]"

وبعد أن وقفنا بإيجاز على معانى أدوات الاستفهام، وما يطلب بكل أداة منها مما يصب كله في طلب الفهم، ينبغى أن نعلم أن "الأدخل في باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والإيماض، هو بحث ألوان الحس، وما يخطر في القلب مما يثيره الاستفهام حين لا يراد به طلب الفهم[٢]".

وهذا ما جعل أهل العلم يذكرون أن ألفاظ الاستفهام كثيراً ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام وهي كثيرة لا يمكن حصرها وسأكتفى بذكر اثنين منها اهتمت بهما كتب البلاغة.

الأول: التقرير، ويطلق على واحد من أمرين:

أ) التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت.

ب) التقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه[٣].

كقولك في التقرير بالفاعل: أأنت أكرمت محمداً ؟ و في التقرير بالفعل: أأكرمت محمداً ؟

وموقع المقرر به من الهمزة يختلف باختلاف نوعه.

فإن كان المقرر به مفرداً فإنه يذكر بعد همزة التقرير، أى تجعل الذى أردت حمل المخاطب على الإقرار به موالياً للهمزة[٤].

(١) ينظر: المطول لسعد الدين التفتازانى ص ٢٣٢ – ٢٣٤ – مطبعة أحمد كامل – ١٣٣٠هـ – الناشر المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة.

(٢) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص٢٠٣-٢٠٤.

(٣) المطول ص ٢٢٦.

(٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢/٢٩٤.

وإن كان التقرير بما يعرفه المخاطب من مضمون الكلام الذى دخلت عليه الهمزة فلا يلى المقرر به الهمزة سواء كان على سبيل الإيجاب أو النفى.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

والاستفهام التقريري ليس مقصوراً على الهمزة، فقد يقرر بهل وإن نازع في هذا بعض العلماء[١].

وتكون للتقرير بنفس النسبة الحكمية فقط كما يقال: هل زيد عاجز عن إذايتى عند ظهور عجزه؟ وكذا ما سواها من أدوات الاستفهام غير الهمزة فإنها للتقرير بما يطلب تصوره بها ككم أعنتك؟ وماذا صنعت معكم؟ عند قيام القرينة في الكل على أن المراد التقرير لا الإنكار مثلاً[٢].

وما يقتضيه التأمل والتدبر أن "هل" تأتى للتقرير والتحقيق والتثبيت متفاعلاً مع غيره من المعانى كما سيتبين لنا عند عرضنا لبلاغة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

والآخر: الإنكار: وهو على ضربين: إنكار توبيخي، وإنكار تكذيبي.

◎ فالإنكار التوبيخي يكون بالتعيير والتقريع على أمر قد وقع ولذلك يقال: الإنكار التوبيخي يتضمن التقرير أى التثبيت والتحقيق، ولذلك فسروا التوبيخ بما يقتضى الوقوع في نحو: أعصيت ربك؟ وقالوا: "أى ما كان ينبغى أن يكون".

(١) نقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بهل إنما تستعمل فيه الهمزة [ينظر: البحر المحيط ١٠/٣٥٨، وعروس الأفراح للسبكى ٢/٢٠٨ (ضمن شروح التلخيص)].

(٢) مواهب الفتاح للمغربى ٢/٢٩٥.

أو يكون للتقريع على أمر خيف وقوعه بأن كان المخاطب بصدد أن يوقعه فيكون المعنى أنه: لا ينبغى أن يكون هذا الأمر الذى أنت أيها المخاطب بصدد عمله وقصده، نحو قولك لمن يهم بالعصيان ولما يقع منه: أتعصى ربك؟!

⊙ أما الإنكار التكذيبي (الإبطالى): فإنه إما أن يكون في الماضى ومعناه: لم يكن وذلك إذا كان المخاطب قد ادعى وقوع شيء فيما مضى أو نزل منزلة من ادعى ذلك، وحينئذ يكون الاستفهام تكذيباً له نحو قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠] أى لم يفعل هذا الذى تدعون.

وإما أن يكون في المستقبل ومعناه: لا يكون، وذلك إذا كان المخاطب قد ادعى أو نزل منزلة من ادعى أن أمراً من الأمور يقع في المستقبل أو في الحال، وحينئذ يكون الاستفهام تكذيباً له نحو قوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] أى لا يقع منا ذلك الإلزام وإنما علينا الإبلاغ لا الإكراه(١).

وإنما ذكرت أبرز هذه المعانى رغبة في الاختصار مما يتساوق مع طبيعة هذه الدراسة المختصرة وحتى نفرغ إلى وصف هذه المعانى وبيان طبيعتها.

طبيعة المعانى التى يفيدها أسلوب الاستفهام:

غنى عن البيان انه يتولد من أداة الاستفهام والتراكيب الداخلة عليه في صحبة ملابسات وقرائن أحوال معانٍ كثيرة تثير الفكر، وتحرك الوجدان والمشاعر، مما يجعلها ذات طبيعة خاصة.

ويكشف عن طبيعة هذه المعانى كثير من الخصائص والسمات، من أبرزها:

١- أن هذه المعانى المتولدة كثيرة لا يمكن الإحاطة بها وحصرها؛ لأنها تصور مشاعر وأحاسيس متدفقة ومتماوجة في نفس الأديب؛ كما أنها "صورة لما تحرره وتصوره وتثيره – أيضاً – من الدقائق والرقائق المضطرمة والمتماوجة في المحيط الداخلى لمن

(١) مواهب الفتاح للمغربى ٢/٣٠٠–٣٠١.

يحكى عنه القرآن الكريم، أو لمن يتلقى ذلك الذكر الحكيم، وتلك مما يستعصى إحصاؤها والإحاطة بها"(١).

وما يذكره العلماء منها إنما هو إرشاد إلى طريقة تفهمهما، وتوجيه إلى كيفية تذوقها وإدراكها والوعى بها.

فقد "لحظ الإمام عبد القاهر – رحمه الله – أن الاستفهام الذى نفسره بهذه المعانى لا يراد به عند التحقيق إلا محض التنبيه: أعنى الإيقاظ وإثارة حركة الفكر والحس ليلتفت بهذا الحضور الواعى إلى السياق فيستوعبه بخفاياه ودقائق همسه وكل حواشيه فيلتقط المراد ....الاستفهام هنا يهيئ النفس لتلقى من السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور هي التى جاشت في نفس متلقيه"(٢)، وهذه لا يمكن حصرها.

يقول الإمام عبد القاهر:"واعلم أنا وإن كنا نفسر "الاستفهام " في مثل هذا بالإنكار، فإن الذى هو محض المعنى: أنه ليتنبه السامع..."(٣).

أما العلامة سعد الدين التفتازانى – رحمه الله – فإنه يرشدنا إلى كيفية التقاط هذه المعانى ويشير إلى الحاكم في ذلك فيقول:"... ولا تنحصر المتولدات فيما ذكره المصنف ولا ينحصر – أيضاً – شيء منها في أداة دون أداة، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب؛ فلا ينبغى أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية"(٤).

٢- أنها في كثير من صورها سوانح خفية أشبه بالأسرار الغامضة، تجرى في النفس جرياناً خفياً تحسها ولا تستطيع وصفها، فقولنا مثلاً : إن هذا الاستفهام يفيد

(١) الاستفهام القرآنى دقائق ورقائق – دراسة تنظيرية تأويلية – للدكتور/ محمود توفيق سعد – مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الخامس – ص٢٠١ – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢٤٤.

(٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص ١١٩– تحقيق : محمود محمد شاكر – الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م – مطبعة المدنى بالقاهرة.

(٤) المطول ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

التقرير، قول ناقص في كثير من الصور، لأن ما في هذا الاستفهام شيء يختلف عن محض التقرير وإن أفاده، وإلا لكانت وسيلة التقرير هي طريق أدائه"(١).

وحين نذكر أن ما تشيعه أداة الاستفهام في تركيبها أرحب وأدق من أن نحدده تحديداً تاماً، وأن المعاني التي يستنبطها الذوق السليم بتتبعه لتراكيبها هي بطبيعتها خفية وهاربة لا نستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة، فنحن بذلك لا نبعد عن طبيعة اللغة التي لا تبين إبانة كاملة عن مراد المتكلم في بعض المواقف، مما يدفعه – أحياناً – إلى استخدام وسائل أخرى من رفع الصوت أو خفضه، ومن الإشارة بيده وغيرها مما يصاحب النطق، وهو في حقيقته كلام غير منطوق(٢).

٣- أنها لا تسير على نسق واحد في الظهور والوضوح "فتراها أحياناً تظهر واضحة في حدود الجملة التي وقعت فيها الأداة، كقولك: أتهين فلان وهو صديقك؟ فإن ذكر الصداقة مما يرشد إلى وضوح المراد من الاستفهام وأنه توبيخ وإنكار، ومنها ما ترى المعنى فيه لا يشخص لك بأحواله وتمامه إلا إذا راجعت سياقاً طويلاً ترى فيه خيوط المعنى تتولد قبل الاستفهام، ثم تأتي الأداة وكأنها تلخيص وتركيز"(٣)، فمثلاً لا نستطيع إدراك معنى الاستبطاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤]، إلا إذا راجعنا سياق الآية الكريمة وتتبعنا خيوط المعنى وهي تتولد قبل الاستفهام.

٤- أن هذه المعاني من قبيل الإفادة لا من قبيل الدلالة، بمعنى أن الذوق المتأدب يستنبطها في إطار تتبع التراكيب والقيود التي يقيد بها أسلوب الاستفهام، وبمعونة السياق وقرائن الأحوال.

---

(١) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢١٧.

(٢) ينظر: السابق نفسه ص ٢١٨.

(٣) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢١٦ – ٢١٧.

وهذا يقوي القول بأن إفادة أسلوب الاستفهام لهذه المعاني من قبيل مستتبعات التراكيب ذلك أننا لا نأخذ تلك المعاني من حاق الأداة، بل من التفرس في كل عنصر من عناصر التركيب. من حيث هو مادة، وتشكيلاً، وجرساً، ومن حيث موقعه، وعلاقته ببقية العناصر، وسياقه وملابساته وقرائنه، كل ذلك ذو حركة فاعلة في استشفاف تلك المعاني واستنباطها من التركيب كله(١).

توجيه إفادة الاستفهام لهذه المعاني:

يلحظ المتتبع لأقوال العلماء – قديماً وحديثاً – في توجيه إفادة الاستفهام – وكذا سائر أساليب الإنشاء الطلبي – لهذه المعاني أنها مرت بعدة مراحل، يمكن أن نوجزها في الآتي:

المرحلة الأولى:

وقد عني رواد هذه المرحلة بالكشف عن دلالة هذه الأساليب وما يصاحبها من معانٍ وأغراض، دون أن يتكلموا في وجه إفادة هذه المعاني بتلك الأساليب، وقد كان الإمام عبد القاهر – رحمه الله – أول من بسط الحديث في ذلك وتبعه في ذلك الإمامان السكاكي والخطيب – رحمهما الله – (٢).

المرحلة الثانية:

وكانت من أصحاب الشروح والحواشي، الذين حاولوا تحديد طريق لإفادة هذه الأساليب لمعانيها وأغراضها، وقد تعددت رؤاهم في ذلك.

– فمنهم من رأى أنها من قبيل المجاز، كالعلامة السبكي، والسعد، وابن يعقوب المغربي(٣).

---

(١) الاستفهام القرآن دقائق ورقائق د/ محمود توفيق سعد ص٢٠٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ص ١١٣ وما بعدها، مفتاح العلوم ص ٣٠٤- ٣٠٥، والإيضاح في علوم البلاغة ص ١٤١ – مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٣) ينظر: عروس الأفراح للسبكي ٢٩٠/٢ (ضمن شروح التلخيص)، و المطول لسعد الدين التفتازاني ص ٢٣٥، و مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢٩٠/٢ (ضمن شروح التلخيص).

- ومنهم من رأى أنها من قبيل مستتبعات التراكيب، وأول من قال بذلك، السبكي في أحد قوليه، وعبد الحكيم السيالكوتي في أحد قوليه[١].

- ومنهم من رأى أنها من قبيل الكناية، كعبد الحكيم في أحد قوليه، وأفاض في ذلك الشيخ الدسوقي، ورجحه[٢].

المرحلة الثالثة:

وتمثلت فيما بذل حديثاً من جهد في تتبع هذه الآراء للحكم عليها إثباتاً أو نفياً، واختياراً لما هو الأنسب بالأساليب.

فالدكتور عبد العظيم المطعني، اختار أنها من قبيل المجاز المرسل[٣]، والدكتور محمد أبو موسى لم يعين طريقاً، وإن كنا نلحظ في كلامه ميلاً إلى القول بأنها من قبيل مستتبعات التراكيب مع أن القول به لا يسلم من ورود اعتراض عليه على حد قوله[٤].

أما الدكتور محمود توفيق سعد، فقد رجح أن إفادة أسلوب الاستفهام لهذه المعاني من قبيل مستتبعات التراكيب، ورأى أن "ما تمتاز به هذه المعاني أنها من قبيل الإفادة لا من قبيل الدلالة، فهي عندنا ليست من المجاز بنوعيه في شيء، ويكفي لليقين بضلال الذهاب إلى مجازية هذه المعاني عجز المحققين من أحبار البلاغة عن تحرير العلاقة بين هذه المعاني وبين المدلول الاصطلاحي للاستفهام، وعن تبيان من أي نوع من أنواع المجاز هذه المعاني، وقد صرح بهذا أمام المحققين المتأخرين سعد الدين التفتازاني حين قال: "تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه في أي نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله"[٥].

---

(١) ينظر: عروس الأفراح للسبكي ٢٠٦/٢ (ضمن شروح التلخيص)، وحاشية عبد الحكيم على المطول، وفيض الفتاح للشربيني ٢٧٨/٣ - مطبعة عباس.

(٢) ينظر: حاشية عبد الحكيم على المطول ٢٧٨/٣، وحاشية الدسوقي على المختصر ٢٩٢/٢ (ضمن شروح التلخيص).

(٣) المجاز في اللغة والقرآن د: عبد العظيم المطعني، ٤٢٥/١ - ط. مكتبة وهبة - الطبعة الأولى.

(٤) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د: محمد أبو موسى، ص ٣٦٤- ٣٦٥ - مكتبة وهبة - الطبعة الثانية - ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

(٥) المطول ص ٢٣٥.

... أضف إليه أن هذه المعاني لم تجرد أدوات الاستفهام من معنى الاستفهام لتستعمل فيه، بل تلك المعاني متولدة من معنى الاستفهام فيها "والتولد يقتضي وجود معنيين، وفي المجاز ينصب قرينة على عدم إرادة المعنى الحقيقي، وكم بينهما"[١].

ومن أقوى الأدلة على بطلان القول بالمجاز "أن الاستفهام قد يفيد معاني متعددة كالتقريع والتوبيخ والتعجب في نص واحد، فإذا ادعينا أن الأداة مجاز في إحدى هذه المعاني، فما موقفنا من غيرها ؟ وهل يمكن أن نقول أنها تنتقل من معناها الأصلي إلى المعاني مجتمعة؟

الواقع أن اللفظ في المجاز ينقل من معناه إلى معنى آخر، لا إلى جملة معان[٢].

ولعلك تستريح معي إلى القول بأن إفادة الاستفهام لهذه المعاني من قبيل مستتبعات التراكيب، حيث إننا لا نلتقط هذه المعاني من الأداة وحدها، بل من تتبع عناصر التركيب كله، مادة وتشكيلاً، وجرساً، وموقعاً، وبمعونة السياق وقرائن الأحوال.

القيمة الفنية لأسلوب الاستفهام:

خلق الله - عز وجل - الإنسان وكرمه بنعمة العقل، وحثه على التعقل والتفكر، وحسن النظر والتدبر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

والتفكير الإنساني شديد التعلق بالاستفهام الذي يرتبط بالإنسان وقضاياه في الحياة، وقد قالوا: "التفكير البشري قد اقترن بأداة الاستفهام الكبرى، لماذا؟"[٣].

---

(١) الخصائص لابن جني ٤٦٤/٢، ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص ٣٠١، وينظر: الاستفهام القرآني دقائق ورقائق د/ محمود توفيق سعد ص ٢٠٢-٢٠٧.

(٣) مشكلة الحياة د: زكريا إبراهيم ص ٥٧ - ط. مكتبة مصر بالقاهرة.

"والاستفهام يتصل في المقام الأول بالإنسان وقضاياه، فما الإنسان بغير تساؤل، وما الإنسان بغير محاولة استكناه الحقائق"[١].

ولعل في تصدير "سورة الإنسان" بهذا الاستفهام التقريري عن حقيقة الإنسان ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] إشارة إلى ذلك. مما يثير في النفس البشرية دوافع التفكير والغوص في الموقف بحثاً عن بدايتها وأصل نشأتها، لتستقر على الحقيقة التي حققتها الآية وقررتها.

هذا عن الاستفهام كنشاط إنساني يرتبط بالإنسان وقضاياه.

أما عن أسلوب الاستفهام ومكانته بين عناصر البناء التركيبي، فإنه يمثل عنصراً مهماً في التراكيب التي يظهر فيها متفاعلاً مع العناصر الأخرى، ليكشف عن حقيقة المعاني ودلالات التراكيب ومغزاها.

هذا بالإضافة إلى أنه "يمثل ثقة في المتلقي حينما يكون موجهاً إليه، أو يفترض عند المتلقي مستوى من الوعي والصدق يجعله قادراً على الفهم أو الإفهام وهذا يجعله جزءاً داخلاً في إطار العمل الأدبي"[٢] مما يؤدي إلى مزيد من الإقناع والاقتناع بين المتكلم والمتلقي.

ففي عرض الفكرة بأسلوب الاستفهام إثارة لذهن المتلقي، وإنصاف لتفكيره وعقله، وإشارة إلى أن المتكلم لا يدعيها وإنما يقر له غيره بها، فهو "يدع النفوس في مواجهة الحقيقة التي ليس من الإنصاف إنكارها، ووراء ذلك ما وراءه من وثاقة"[٣].

ومن ثم كان أسلوب الاستفهام من أبرز أساليب الإقناع والاستمالة، ولذا تراه يكثر في مواقف الانفعال، ومواطن التأثر، وحيث يراد التأثير والتشويق، وتحريك المشاعر، وإثارة الوجدان.

ولعل هذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر حين ذكر أن محض المعنى في هذا الأسلوب أنه ليتنبه السامع.."[٤].

(١) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي د:حسني عبد الجليل ص ٤، ط. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي د:حسني عبد الجليل ص ٣.

(٣) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ص ١١٩.

المبحث الثاني

الاستفهام القرآني ومسالكه

الاستفهام في البيان القرآني نوعان: محكي، وغير محكي.

فالأول: استفهام يحكيه القرآن عن الخلق.

والثاني: استفهام من الحق جل وعلا غير محكي عن أحد من الخلق.

ومعلوم أن الاستفهام معناه في اللغة: طلب الفهم، وفي اصطلاح البلاغيين: طلب حصول صورة الشيء في الذهن[١].

وظاهر هذا الكلام قد لا يتوائم مع النوع الثاني من الاستفهام القرآني، ومن ثم جد العلماء في تأويله.

وقد تنوعت أقوالهم في ذلك.

فذكر "المبرد" أن ذلك "ليس على جهة الاستفهام (يعني الاستفهام الحقيقي)؛ لأن المستخبر[٢] غير عالم، إنما يتوقع الجواب فيعلم به، والله — عز وجل — منفي عنه ذلك، وإنما تخرج هذه الحروف في القرآن مخرج التوبيخ والتقريع"[٣].

كما حكى "الزركشي" عن بعض الأئمة أن "ما جاء على لفظ الاستفهام في القرآن فإنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده على ذلك الإثبات أو النفي حاصل، فيستفهم عنه نفسه تخبره به، إذ قد وضعه الله عندها... فإن الرب سبحانه لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن، وهو في كلام البشر مختلف"[٤].

(١) المطول لسعد الدين التفتازاني ص ٢٢٦.

(٢) يفهم من هذا أن المبرد يسوى بين الاستفهام والاستخبار في المعنى.

(٣) المقتضب للمبرد ٣/٢٩٢ – تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة – ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر – ١٣٩٩هـ.

(٤) البرهان في علوم القرآن لبرهان الدين الزركشي ٢/٣٢٧، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت.

فالحق – تعالى جده – يستفهم خلقه ليواجه نفوسهم وفطرتهم بما استقر فيها، وليذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء المستفهم عنه.

وخلاصة ما تقدم : أن أى استفهام غير محكى في البيان العلىّ ينبغى أن يـؤول إلى ما يتلاءم مع كمال الله – جل شأنه – الذى وسع علمه كل شيء، فلا يخفى عليه شيء سبحانه حتى يستفهم عنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولعل هذا التأويل ناظر إلى أن الاستفهام طلب ما في الخـارج أو تحصيله في ذهن المتكلم خاصة.

وقد ذكر "السيوطى" أن الاستفهام ليس فقط طلب فهم المستفهم، وإنما هناك أيضاً ما هو طلب إفهام المسئول حيث يقول:"ولا بدع في صدور الاستفهام عمن يعلم المستفهم عنه. لأن طلب الفهم إما طلب فهم المستفهم أو طلب وقوع فهم لمن لم يفهم كائناً من كان"[1].

وهذا يعنى إطلاق كلمة "الذهن" التى وردت في بيان البلاغيين عـن حقيقـة الاستفهام، لتنطلق من القيد بذهن المتكلم، فتشمل ذهن غيره. وحينئـذ لا مـانع أن يكون طلب الفهم في الاستفهامات غير المحكية في القرآن مصروفاً إلى غير المسـتفهم والمستفهم عنه.

وخلاصة القول في ذلك : أن كلمة "الذهن" إن قيدت فأريد بها ذهن المتكلم فإن المدلول اللغوى والاصطلاحى للاستفهام لا يستقيم مع النوع الثانى من الاستفهام في القرآن الكريم؛ لأن الله – عز وعلا – لا يطلب ذلك، تعالى الله عن ذلـك علـواً كبيراً.

ومن ثم فكل استفهام غير محكى في القرآن ينبغى أن يؤول إلى ما يتلاءم مـع كمال الله – عز وعلا – .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٨١/٢، مطبعة البابى الحلبى، مصر، ١٩٥١.

وإن أطلقت كلمة "الذهن" ولم تقيد بذهن المتكلم فشملت ذهن غيره.. فإن بعضاً من الاستفهام في النوع الثانى يمكن أن يتحقق فيه الطلب حين لا يراد حصـول صورة الشيء في ذهن المتكلم خاصة[1].

وقد نبه إلى شيء من ذلك البهاء السبكى فقال:"الاستفهام طلـب الفهـم، ولكن طلب فهم المستفهم، أو طلب وقوع فهم لمن لم يفهم كائناً من كان"[2].

ولعل ما ذهب إليه البهاء السبكى أقرب إلى الفقه البيانى القائم على شيء من الحس اللغوى المرهف، والاستشفاف الذوقى لواقع الكلمة المبينة الكاشفة[3].

(١) الاستفهام القرآنى دقائق ورقائق د/ محمود توفيق سعد ص ٢٠٠.

(٢) عروس الأفراح للسبكى ٢٠٧/٢ (ضمن شروح التلخيص).

(٣) الاستفهام القرآنى دقائق ورقائق د/ محمود توفيق سعد ص ٢٠١.

المبحث الثالث

فواتح السور القرآنية

المقصود بـ"فواتح السور القرآنية":

فواتح: جمع فاتحة وهي مأخوذة من الفتح، قال الراغب (ت٥٠٢هـ):"الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، وفاتحة كل شيء مبدؤه الذى به ما بعده، وبه سمى فاتحة الكتاب. وقيل: افتتح فلان كذا إذا ابتدأ به"(١).

ففاتحة السورة مبدؤها الذى يفتح به ما بعده، ويكشف به عن مقصودها.

والسور: جمع سورة:

وإذا نظرنا في كلمة "سورة" نجد أن دلالتها اللغوية ترجع إلى السور والتصاعد، والمنزلة أو المرتبة، وسور المدينة، والسؤر: وهو البقية(٢).

قال الراغب:"السور: وثوب مع علو... والسورة المنزلة الرفيعة، وسور المدينة: حائطها المشتمل عليها، وسورة القرآن تشبيهاً بها لكونه محاطاً به إحاطة السور بالمدينة، أو لكونها منزلة كمنازل القمر ومن قال: سؤرة: فمن أسأرت أى أبقيت منها بقية، كأنها قطعة مفردة من جملة القرآن.

كقوله تعالى:﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾[النور:١] أى: جملة من الأحكام والحكم، وقيل: أسأرت القدح أى: أبقيت فيه سؤراً أى بقية"(٣).

أما دلالتها في البيان القرآنى دلالة اصطلاحية، فهى "قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران مسماة باسم مخصوص تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام، ترتكز عليه معانى آيات تلك السورة، ناشيء عن أسباب النزول أو مقتضيات ما تشتمل عليه من المعانى المتنامية"(٤).

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٧٠، ط.دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور – مادة "سو"

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهان ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٤) التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور ٨٤/١– ط.دار التونسية.

والمناسبة واضحة بين الدلالتين اللغوية والاصطلاحية، ولذلك نجد كثيراً من أهل العلم يركز – مثلاً – على التشابه الواضح ما بين هذه التسمية "سورة" وسور المدينة كما فعل الراغب فيما سبق.

وكما فعل الحرالّى(١) – رحمه الله – (ت ٦٣٧هـ) حين عرف السورة بقوله:"السورة تمام جملة من المسموع يحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة"(٢).

ومعنى ذلك "أنه نزلت الآيات والجمل التى هي من أجزاء السورة منزلة الحلات والبيوت في البلد، ولولا هذا التنزيل لم يصح هذا التشبيه"(٣).

فالمقصود بفاتحة السورة أو مطلعها "مجموع ما انتظم به تمام المعنى من الآيات في أوائل السور، وذلك لأن سور القرآن ليست على درجة سواء في طولها وقصرها وعدد آياتها، ومن ثم فانه من العسير أن يكون ثم معيار كمى لفاتحة السورة أو مطلعها"(٤).

وقد قصر ابن أبي الإصبع المصرى – رحمه الله – (ت ٦٥٤هـ) فاتحة السورة على كل لفظة افتتحت بها سورة دون ما بعدها من الكلمات، كلفظة "الحمد" بمجردها من الفاتحة، ولفظة "الم" بمجردها من البقرة.

وذلك سعياً منه إلى إثبات إعجاز القرآن بمفرداته المفتتح بها السور"(٥).

---

(١) هو الإمام المفسر أبو الحسن على بن أحمد بن الحسين التجيبي المالكى الحرالى، كان عارفاً متقناً للنحو والكلام، والمنطق، سكن حماة وله تفسير عجيب "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل"، توفى سنة ٦٣٧هـ أكثر البقاعى من النقل عنه. نظم الدرر ٧/١.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعى ٦٢/١، ط.دار الكتب العلمية، بيروت نقلاً عن الحرالى.

(٣) حاشية السيد الشريف على الكشاف ٢٤٠/١ – ط.دار الكتب العلمية، بيروت، وحاشية الشهاب على البيضاوى ٣٢/٢، ط.دار إحياء التراث، بيروت.

(٤) منهج البحث البيانى عن المعنى القرآنى في سياق السورة د:محمود توفيق سعد، ص ٨٥، مطبعة الأخوة الأشقاء، (بدون تاريخ).

(٥) يقول ابن أبي الإصبع:وخطر لى خاطر يحصل به الغرض الأتم وذلك أنى لحظت فواتح السور – أعنى= الكلمات المفردات، لا أوائل السور من الآيات بل كل لفظة افتتحت بها سورة دون ما بعدها من الكلمات كلفظة (الحمد) بمجردها من الفاتحة ولفظة (الم) بمجردها من البقرة فرأيتها ينتظم منها إعجاز يحصل به الاستدلال القاطع للمنازع عند الجدل هذا على أنها مفردات، وإنما يقع الإعجاز= بالجمل المؤلفات فكان هذا خارجاً مخرج العجب العجاب، واستنباط مثله فضيلة يشهد بها ذوو الألباب. [الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح لابن أبي الإصبع المصرى – تقديم وتحقيق: د/حفنى محمد شرف ص ٧٣ – مطبعة الرسالة – القاهرة ١٩٦٠م، والكتاب في دار الكتب المصرية تحت رمز ورقم ب/٣٠٣٤٩].

ولما كان حديثنا عن الاستفهام باعتباره عنصراً في البناء التركيبي يرتبط ببقية العناصر في الكشف عن المعاني في فواتح السور القرآنية فقد آثرنا اعتبار فاتحة السورة بمجموع ما انتظم به تمام المعنى من الآيات في أوائل السور القرآنية.

العلماء و فواتح السور القرآنية:

حظي الحديث عن مبادئ الكلام وافتتاحاته بعناية أهل العلم وأرباب البيان، حتى عدوه ركناً من أركان البلاغة[1]، كما جعلوا أحذق الشعراء من يتفقد الابتداء والمقطع، أي يعتني بهما[2].

وقد استقروا على: أن يكون الابتداء دلائل البيان[3]، ودالاً على المعنى المقصود[4]، وأن يكون المفتتح مناسباً لقصد المتكلم من جميع جهاته[5]، وغنى عن البيان أنه من أعظم الافتتاحات وآنقها وأشدها ارتباطاً بالمعنى المقصود فواتح السور القرآنية.

وقد بدأ الحديث عن فواتح السور القرآنية في صورة إشارات موجزة عند علماء التفسير، ولعل أقدم من أشار إليها - فيما لدى من مصادر - الإمام ابن جرير الطبرى - رحمه الله - (ت ٣١٠هـ) في تفسيره حيث قال عن فاتحة سورة مريم ﴿كهيعص﴾: "كل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتحت سوراً كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه"[6].

---

(١) ينظر: الطراز للعلوى يحيى بن حمزة (ت٧٤٩هـ) ص ٣٣٠ - ط.أولى - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكرى ص ٤٩٣ - ط.ثانية - ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م - دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) السابق ص ٤٨٩.

(٤) ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ت٤٦٦هـ) - ص ٥٤ - تحقيق: على فودة - مطبعة الخانجى - القاهرة - ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى (ت٦٨٤ هـ) - ص ٣٠٩، تحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة، ط. دار الكتب الشرقية.

(٦) جامع البيان في تأويل آى القرآن للطبرى (ت ٣١٠هـ) ج١٦/٥٢-٥٧، ط.دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

وقد كانت هذه إشارة موجزة ومبكرة، ذكر فيها الإمام ثلاثة أنواع من فواتح السور القرآنية.

ثم جاء الإمام أبو هلال العسكرى - رحمه الله - (ت٣٩٥هـ) وذكر أنه "إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله - عز وجل -: ﴿ألم، حم، طس، طسم، كهيعص﴾ فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده"[1] هذا عن سر الابتداء بالحروف المقطعة.

كما قال معللاً ابتداء القرآن الكريم بالحمد والثناء على الله تعالى: "ولما كانت النفوس تتشوق للثناء على الله تعالى ابتدأ كتابه المبين بالحمد لله وجعله في ابتداء أكثر من سورة، إذ هو داعية إلى الاستماع وحسن التدبر لما يجيء بعده من الكلام"[2].

وتتابعت بعد ذلك إشارات العلماء وأئمة التفسير، كالإمام الزمخشرى (ت٥٣٨هـ) والإمام ابن عطية (ت٥٤٦هـ) والإمام الرازى (ت ٦٠٦هـ) وغيرهم حتى جاء الإمام ابن أبي الإصبع المصرى (ت٦٥٤هـ) فألف كتاباً صغير الحجم خصه بذكر الفواتح وسماه "الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح"[3]، وقد قسم فيه الفواتح قسمين: الفواتح المعجمة "الحرفية"، والفواتح المعربة "اللفظية"، وجعل كل قسم خمسة أقسام وكان تركيزه في كل ذلك على اللفظة التى افتتحت بها كل سورة، دون ما بعدها من كلمات، ولما كان اهتمام ابن أبي الإصبع - رحمه الله - بالألفاظ المفردة في بداية كل سورة، فقد كثرت عنده التقسيمات لنوعى الفواتح المعجمة والمعربة.

---

(١) الصناعتين ص ٤٩٣، ٤٩٦.

(٢) السابق نفسه ص ٤٩٣.

(٣) ينظر: الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح ص ٧٣، ٧٥ - مقدمة المؤلف.

ومن اهتم بفواتح السور الإمام الزركشي (ت٧٩٤هـ) حيث جعل النوع السابع في كتابه "البرهان في علوم القرآن" في أسرار الفواتح والسور، وجعل الفواتح عشرة أنواع لا يخرج شيء من السور عنها[١].

ونلحظ في تقسيماته أنها ناظرة إلى المعاني التي استعملت فيها الفواتح كمعاني الثناء، والدعاء، والنداء، والتعليل، ..إلخ، إضافة إلى حروف التهجي.

وقد ختم الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) كتابه "تلخيص المفتاح ببيان منزلة فواتح السور وخواتمها" فقال:"وجميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن الوجوه وأكملها، يظهر ذلك بالتأمل فيها مع التذكر لما تقدم"[٢].

وهو هنا يلفت الأذهان إلى أمرين في غاية الأهمية:

أحدهما : أن جميع فواتح سور القرآن وخواتمها قد بلغت الدرجة القصوى في الحسن والكمال، والبلاغة والبراعة، وذلك لما تحويه من فنون المعاني، ولطائف الإشارات، التي تناسب ما نزلت لأجله، ومن خوطبت به، مما لا يمكن حصره أو يقدر قدره[٣].

---

(١) يقول الإمام الزركشي: " وقد افتتح الله سبحانه كتابه بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من الصور عنها:

١- الاستفتاح بالثناء في أربع عشرة سورة.

٢- الاستفتاح بحروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

٣- الاستفتاح بالنداء في عشر سور.

٤- الاستفتاح بالجمل الخبرية في ثلاث وعشرين سورة.

٥- الاستفتاح بالقسم في خمس عشرة سورة.

٦- الاستفتاح بالشرط في سبع سور.

٧- الاستفتاح بالأمر في ست سور.

٨- الاستفتاح بالاستفهام في ست سور.

٩- الاستفتاح بالدعاء في ثلاث سور.

١٠- الاستفتاح بالتعليل في سورة واحدة.[ينظر: البرهان في علوم القرآن ١٨٠/١].

(٢) شروح التلخيص ٥٤٥/٤، ٥٤٦ – ط.دار السرور بيروت.

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠هـ) ٥٤٥/٤ .

والآخر: أن البحث في بلاغة فواتح السور وخواتمها مما قد يغمض على بعض الأذهان، ومن ثم فهو ينبهنا إلى وسيلة الكشف عن ذلك بقوله:"يظهر ذلك بالتأمل فيها مع التذكر لما تقدم"، ويقصد بقوله "ما تقدم" فنون البلاغة الثلاثة التي تقدم الحديث عنها، والتي تدل على وجه ورود فواتح السور وخواتمها على احسن الوجوه وأكملها في البلاغة والبراعة.

فبالتأمل في معاني الفواتح والخواتم، مع التذكر والتدبر للقواعد والأصول البلاغية المتقدمة يمكن الكشف عن بلاغة وأسرار فواتح السور وخواتمها، ويظهر ما ذكروا من أن الفواتح والخواتم على أحسن الوجوه وأكملها.

وقد فصل شراح التلخيص قول الخطيب، وأشاروا إلى بعض أنواع الفواتح والخواتم، وسار من بعدهم على دربهم في البيان والشرح[١].

وغني عن البيان أن أوائل الكلام ينبغي أن ترتبط به وبمقاصده أشد الارتباط، وان تكشف عن سيما البيان فيه، وبتدبرك في آيات البيان القرآني تستطيع أن تحس "وترى مطالع سور القرآن ملتصقة بمقاصدها مترجمة عن سيما البيان في السور"[٢].

وقد جاء الاستفتاح بالاستفهام في القرآن الكريم في ست سور هي سور: الإنسان، النبأ، الغاشية، الشرح، الفيل، الماعون.

والسور الثلاث الأول : تركز على قضية البعث والجزاء ، والثلاث الأخر فيها تذكير بالنعم وحض على ذكر المنعم سبحانه .

---

(١) ينظر: شروح التلخيص ٥٤٥/٤، ٥٤٧.

(٢) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم – للباحث: إبراهيم صلاح الهدهد ص ٥٣٨ – مخطوط رسالة دكتوراة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم (٢٩٨٧).

الفصل الثاني

بلاغة الاستفهام في فواتح سور : " الإنسان و النبأ و الغاشية "

مدخل :

يجدر بنا قبل الغوص في التحليل البلاغي للاستفهام القرآني في فواتح سور:الإنسان والنبأ والغاشية أن نوجز الحديث عن لفظي الاستفهام : "هل وما"، حيث إن "هل" استفتحت بها سورتا الإنسان والغاشية، و "ما" المجرورة بـ"عن" استفتحت بها سورة النبأ.

ولعل ما يجمع هذه السور هو : أن محور المعاني في جميعها يدور حول الاستدلال على قدرة الخالق سبحانه على البعث والمعاد يوم القيامة، والاستفهام في جميعها يقرر أمر البعث والحساب في اليوم الآخر.

دلالة "هل":

تعددت أقوال العلماء في دلالة "هل" فجاءت على أربعة مذاهب:

الأول: أنها بمعنى "قد" دائماً، ودلالتها على الاستفهام بتقدير الهمزة قبلها وهذا مذهب الزمخشري[1] وجماعة.

وقد استدلوا بقول سيبويه "... وكذلك "هل" إنما تكون بمنزلة "قد" إلا أنهم تركوا الألف قبلها، إذا كانت لا تقع إلا في الاستفهام [2] والأصل: أهل بدليل قول الشاعر[3] :

سائِل فَوارِسَ يَربوعٍ بِشدَّتِنا ... أَهَل رَأَونا بِسَفحِ القاعِ ذي الأَكَمِ

---

(١) ينظر: الكشاف للإمام الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ١٩٤/٤، ط.دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ينظر: الكتاب لسيبويه ١٨٩/٣، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، ط.الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

(٣) هو زيد الخيل والبيت ضمن مجموعة أبيات قالها في غارة أغارها على بني يربوع. [ينظر : شعراء إسلاميون للدكتور نوري حمودي، ص ٢٠٦ / ط. عالم الكتب، وينظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٢٨٦/٨

الثاني : أنها بمعنى "قد" دون استفهام مقدر قبلها، وقد تتضمن هي معنى الاستفهام دون تقدير للهمزة قبلها، وهذا مذهب الفراء والكسائي[1].

الثالث : أنه يتعين مرادفة "هل" لـ"قد" إذا دخلت عليها الهمزة; يعني كما في البيت، فإن لم تدخل عليها الهمزة فقد تكون بمعنى "قد"، وقد تكون للاستفهام بالتضمن، وهذا مذهب ابن مالك[2].

الرابع: أنها دائماً للاستفهام، ولا تأتي بمعنى "قد" أصلاً، وهذا مذهب السيرافي وابن هشام وجماعة[3].

وقد أول السيرافي كلام سيبويه على أن المراد أن "هل" يستقبل بها الاستفهام كما أن "قد" يستقبل بها الخبر . وقال عن بيت "زيد الخيل" بأن هذا غير معروف والرواية " أم هل "[4].

وتوسع ابن هشام في الرد على من أثبت أنها تأتي بمعنى "قد" [5].

ونستطيع أن نلحظ مما تقدم أن أكثر النحاة متفقون على أنه عند إرادة الاستفهام ليست بمعنى "قد"، والمقصود الاستفهام الحقيقي، أما حين تستعمل في التقرير[6] فيجوز أن تكون بمعنى "قد" لإفادة تحقيق الحكم وثبوته، أو لحمل المخاطب

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢١٣/٣، تحقيق/ محمد على النجار، دارالسرور.

(٢) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك (ت٦٧٢هـ) ١٠٩/٤، تحقيق د/عبد الرحمن السيد، ط.الأولى، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

(٣) ينظر: مغني اللبيب لابن هشام ٣٠/٢ – ط.الحلبي – القاهرة.

(٤) ينظر: عروس الأفراح للسبكي ٢٦١/٢ (ضمن شروح التلخيص).

(٥) ينظر: مغني اللبيب ٣٠/٢.

(٦) ذهب ابن جني (ت ٣٩٢هـ) إلى أن "هل" لا تستعمل للاستفهام التقريري حيث قال:"وهل لا تقع تقريراً كما يقع غيرها مما هو للاستفهام". [مقدمة الأستاذ: النجار لكتاب الخصائص ٦٤/١]، ونقل أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بـ"هل" إنما تستعمل فيه الهمزة .[البحر المحيط ٣٥٨/١٠، ٣٥٩ – ط.دار الفكر – بيروت ١٤١٢هـ ١٩٩٢م]، وما عليه أكثر العلماء أن "هل" تشارك الهمزة في معنى التقرير، كما كشفت عن ذلك آيات القرآن الكريم.

على الإقرار وهذا لا يعنى أنها مرادفة لـ"قد" كما ذكر الزمخشرى – رحمه الله – ، كما لا يعنى أنها في الأصل بمعنى "قد" ثم صارت للاستفهام.

والخلاصة أن "هل" حرف استفهام موضوع لطلب التصديق فحسب[1] ويمكن تأويله بمعنى "قد" إذا دخلت على الجملة الفعلية وكان الاستفهام للتقرير، كما جاء عن معظم النحاة والمفسرين، فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بـ"قد"، لأن "قد" من خواص الأفعال ولا تدخل على الأسماء، كذا إذا تمحضت للاستفهام لا تؤول بـ"قد"، لأنها استعملت فيما وضعت له.

خصائص "هل":

أولاً: ذكر العلماء أن "هل" حرف استفهام يستعمل لطلب التصديق فحسب، أى أنها ممحوضة لمطلق طلب وقوع النسبة أو لا وقوعها، نحو: هل جاء زيد؟ ولأجل ذلك امتنع استعمالها في تركيب قرنت فيه بما يدل على السؤال عن التصور نحو قولك: هل زيد قائم أم عمرو؟ لأن أم هنا وقع بعدها مفرد فدل على كونها متصلة، والمتصلة تدل على كون السؤال عن التصور، لأنها لتعيين أحد الشيئين بعد العلم بأصل النسبة، وهل لطلب أصل النسبة.. فتنافيا[2].

ونحو قولك: هل زيداً ضربت؟ حيث إن تقديم المفعول يستدعى غالباً حصول التصديق بوقوع الفعل، فالسؤال فيه عن تعيين المفعول[3].

وذكر ابن هشام أن "هل" تستعمل في طلب التصديق الايجابي نحو: هل قام زيد؟ دون التصديق السلبى، نحو: هل لم يقم زيد؟[4]

---

(١) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) ينظر: السابق نفسه ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) ويجوز أن يكون زيداً" مفعولاً لفعل محذوف، وأن يكون تقديمه للاهتمام، وحينئذ يكون قبيحاً لا ممتنع كما ذكر البلاغيون. ينظر: السابق نفسه ٢/ ٢٥٥-٢٥٦.

(٤) ينظر: مغنى اللبيب ٢/٢٨.

ثانياً: أن "هل" تخلص الفعل المضارع للاستقبال، ومن ثم فلا تستعمل فيما يراد به الحال، كقولك: هل تضرب زيداً وهو أخوك[1].

ثالثاً: ولأجل اختصاصها بالتصديق، وتخليصها المضارع للاستقبال، كان لها مزيد اختصاص بما كونه زمانياً أظهر من غيره في دلالة ذلك الغير على الزمان كالفعل، فإن كونه زمانياً أظهر من كون الاسم زمانياً، ولو كان مصدراً أو مشتقاً، لأن دلالة الفعل على الزمان بالتضمن إذ هو جزء مدلوله، ودلالة الاسم عليه في بعض الأحيان بالالتزام. والأولى أقوى من الثانية، فدلالة الفعل على الزمان أظهر[2].

ولما كان لـ"هل" مزيد اختصاص بالفعل فقد ذكر أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] أدل على طلب الشكر من "فهل تشكرون – فهل أنتم تشكرون – أفأنتم تشكرون". وذلك لأن إبراز ما يتجدد في معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله كما في الأول والثاني[3]، كما أن "هل" أدعى للفعل من الهمزة ومن ثم كان ترك الفعل معها أدل على كمال العناية بحصول ما سيتجدد، – كما في الثالث – وإن كان الثبوت باعتبار كون الجملة اسمية فيهما[4].

"ما" لطلب التصور:

"ما" اسم استفهام يطلب به التصور، ويستعمل عند السكاكى في السؤال عن الجنس، تقول: ما عندك؟ بمعنى أى أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه: إنسان أو فرس، أو كتاب، أو طعام.

أو عن الوصف تقول: ما زيد؟ و ما عمرو؟ وجوابه: الكريم أو الفاضل أو شابه ذلك[5].

---

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) مع أن الثاني مؤكد بالتكرير لأن "أنتم" فاعل لفعل محذوف".

(٤) ينظر: مختصر العلامة سعد الدين على التلخيص ٢/٢٧٠ (ضمن شروح التلخيص).

(٥) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكى ص ٣١٠.

أما محمد بن على الجرجاني فقد ذكر أنهم منعوا أن يسأل بـ "ما" عن الوصف، بل إما عن مسمى اللفظ أو عن الماهية، ولا نسلم أن جواب ما زيد وما عمرو هو: الوصف، بل الماهية وهي الإنسان، وإنما يقع الوصف إذا لم يكن للمسئول عنه ماهية معقولة، أو تقع في جواب أى شيء هو من الأوصاف المختصة الظاهرة(١).

وما ذكره الإمام السكاكى - رحمه الله - أدق وأقرب إلى واقع الاستعمال اللغوى لهذه الكلمة.

(١) ينظر: الإشارات والتنبيهات - محمد بن على الجرجاني ص ١٠٦ تحقيق د/عبد القادر حسين، ط.دار نهضة مصر.

المبحث الأول

بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الإنسان(١):

استفتح الحق جل اسمه سورة الإنسان بقوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣].

وفي هذا الاستفتاح تذكير الإنسان بحقيقة أمره، وأصل نشأته وتعريفه بحاله قبل الخلق وبعده، ليدرك مدى ضعفه وعجزه وأنه تحت قدرة ومشيئة خالقه سبحانه، مما يستوجب منه طاعته وشكره على نعم: الإيجاد، والإدراك، والتمييز، والهداية، حيث وهبه الحياة وهو يملك آلات الفهم التى تساعده على النجاح في الابتلاء، وتأخذ بعقله إلى التفكير فيما وراء الحياة من تدبير وتقدير يستلزم من الإنسان إدراكاً ووعياً.

وقبل الإبحار في التأويل البلاغى والجمالى لأسلوب الاستفهام في صدر هذه السورة يجدر بنا أن نقف عند مقصودها، وعلاقة فاتحتها بخاتمة ما قبلها، لما لذلك من أهمية في الكشف عن بلاغة الاستفهام في صدرها، وسنقف هذه الوقفة مع كل سورة نعرض لها بمشيئة الله تعالى.

أولاً: مقصود السورة:

مقصود هذه السورة بيان أثر نعمة الخالق سبحانه في رفعة الإنسان، وإيجاده على أحسن صورة بعد أن لم يكن شيئاً يذكر حيناً من الدهر وذلك بتأمل آيته، وتدبر

(١) هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال مجاهد وقتادة مدنية، وقال الحسن وعكرمة مدنية إلا الآية ٢٤ فمكية، وقيل مدنية إلا من قوله تعالى:﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفورا﴾ إلى آخر السورة فمكى.[البحر المحيط لأبى حيان ٣٥٨/١٠ - ط.دار الفكر - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م].
والأظهر أنها مكية كما هو قول الجمهور، ومكيتها ظاهرة جداً في موضوعها وفي سياقها وفي سماتها كلها.. تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة، وصور العذاب الغليظ، كما يشي به تصبير النبى ﷺ وتثبيته على الحق الذى جاء به عند اشتداد أذى قومه على الدعوة وأصحابها في مكة.[ينظر: في ظلال القرآن الكريم ٣٧٧٧/٦- ط.دار الشروق].

مبدئه وغايته، وقد اقتضى هذا أن يجرى سياق السورة في شيء من الترغيب والترهيب[1] بقصد حث الإنسان على سلوك طريق الطاعة لربه والالتجاء إليه سبحانه، وهذا يتناغم مع اسم السورة "الإنسان" وكذا تسميتها بـ"الدهر" و"هل أتى" و "الأمشاج "[2].

ومما يؤكد مسلك المزج بين الترغيب والترهيب في السورة الحديث الذى رواه سيدنا أبو ذر رضى الله عنه قال: [قرأ رسول الله ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى أَوْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ][3].

فهذه السورة وإن تضمنت من سعة رحمة الله عز وجل ما تضمنت إلا أنها أشارت إلى عظيم جلاله سبحانه وتعالى ما أشارت[4].

ولعل ورود كلمة "أمشاج" في هذه السورة، وهي مشتقة من المشج بمعنى الخلط والمزج ما يؤكد ذلك أيضاً.

ثانياً: علاقة فاتحة هذه السورة بخاتمة سورة القيامة:

مما هو معلوم أن كل سورة في القرآن الكريم ترتبط ارتباطاً جد وثيق بسابقتها ولاحقتها، وهذا لا يعنى التطابق والاتحاد في الأبنية والمعاني، بل لكل صورة شخصيتها وأبنيتها البيانية والفكرية، ومن ثم كانت "هي وحدة التحدى الصغرى الذى جاء به القرآن، ولولا أن في هذا البناء الكلى للسورة ما ليس فيما دونه مما له أثر جد عظيم في المعنى القرآني لما كان التحدى متوقفاً عند بناء السورة وجعله أدنى ما تحدى به "[5].

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (ت ٨٨٥هـ) ٢٥٩/٨، والنظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي ص ٣٣٤ – ط .مكتبة الآداب – القاهرة.

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٢٥٩/٨.

(٣) رواه أحمد والترمذى وحسنه، وابن ماجة والحاكم وصححه، مسند الإمام أحمد، كتاب مسند الأنصار، حديث رقم (٢١٠٠٥)، ط.دار الفكر ١٤١١هـ، وسنن الترمذى، كتاب الزهد، حديث رقم (٢٣٢١)، ط. دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م

(٤) روح المعاني للألوسي ٢٨٩/٢٩، ط.دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٥) منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة د:محمود توفيق ص ٤ط.مطبعة الأخوة الأشقاء.

وقد اهتمت "سورة القيامة" بتأكيد أمر المعاد والبعث للوقوف بين يدي الخالق سبحانه للحساب، ومن ثم واجهت منكرى البعث الذين عميت بصائرهم عن النظر والاعتبار، واستمر سياق السورة في تبكيت المنكرين للمعاد وتوبيخهم حتى ختمت بالاستدلال على البعث وتمام القدرة عليه، وذلك بتعريف المنكر للبعث بحاله التى لو فكر فيها لما كان منه هذا الإنكار والتكذيب:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ...... ﴾ إلخ السورة.

وقد اتبع ذلك بما هو أعرق في التوبيخ وأوغل في التعريف، وأقوى في الاستدلال، وهو أنه قد كان لاشيء، لا نطفة ولا علقة، ثم انعم الله عليه بنعمة الإيجاد[1]، والخلق في أحسن صورة تمكنه من سلوك طريق الهداية، وذلك ما جاء في فاتحة سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

وبذا يتبين لنا شدة اعتلاق فاتحة سورة الإنسان بخاتمة سورة القيامة، لما اشتملا عليه من تأكيد أمر المعاد والبعث، وتمام القدرة الإلهية عليه.

وإن توسع الخطاب في صدر سورة الإنسان فشمل الناس جميعاً، وذلك لأن تعريف الإنسان بأصل نشأته من العدم، وإن كان فيه تأكيد لأمر البعث، وتمام القدرة عليه، إلا أنه من جهة أخرى يذكر الإنسان – كل إنسان – بعجزه وضعفه، ويوجه فكره إلى أنه واقع تحت القدرة والمشيئة، وأن هذا يقتضى منه اعترافاً وشكراً وتحقيقاً للحكمة من خلقه وهي النجاح في الابتلاء، وذلك بأن يعبد الله ويتقيه وبذا يكون شاكراً غير كافر، وهذا هو مقصود السورة الأعظم، وقد أشارت إليه فاتحتها وأسسته، بعدما أكدت أمر البعث المذكور في سورة القيامة قبلها "مما يدعم ترابط المعاني القرآنية وتكاملها وتناسلها في السور حتى يتحقق المعنى الكلى للقرآن تفصيلاً بعد ذكره مجملاً في سورة الفاتحة ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٢٦٠/٨ نقلاً عن الإمام أبي جعفر بن الزبير.

ومن ثم يكون لكل سورة موقع على مدرجة سياق المعنى الكلي للقرآن، وهي مدرجة متصاعدة "[١].

والآيات الثلاث في صدر سورة "الإنسان" تلمس القلب البشرى لمسات رفيقة موحية تثير فيه تفكيراً عميقاً، وتجعله ينظر في حقيقة أمره نظرات ثلاث:

نظرة إلى الوراء، يستكشف بها أين كان قبل أن يكون ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾.

ونظرة إلى الإمام يتدبر من خلالها حكمة الله في خلقه وتزيده بالطاقات والمدارك التى تعينه على سلوك الطريق إلى ربه ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.

ونظرة ثالثة يختار فيها الطريق بعد أن هداه الله وأعانه عليه، وتركه بعد ذلك لمصيره الذى يختاره[٢] ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾.

معاني الاستفهام في فاتحة "سورة الإنسان":

وقد صدر البيان القرآني هذه اللمسات بأسلوب الاستفهام ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾وذلك لما في هذا الأسلوب من قدرة على تحريك المشاعر وإثارة الذهن وتنشيطه حتى يستقبل المعاني وهو في حالة توقد وتوهج فتستقر فيه وتقع منه موقعاً حسناً[٣].

ومعلوم أنه من مقاصد القرآن الكريم توجيه الأفكار، وتحريك للأذهان والعقول للوقوف على آيات الخالق سبحانه في الأفاق وفي الأنفس، وعلى دلائل قدرته سبحانه في كل ذلك، حتى يتمكن من سلوك الطريق إلى ربه جل وعز.

---

(١) منهج البحث البياني عن المعنى القرآني ص ١٣١.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، ٣٧٧٧/٦.

(٣) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم د:عبد العظيم المطعني ٣٣٠/٤ - ط.مكتبة وهبة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م ط.أولى.

وقد تعددت تأويلات العلماء لمعنى الاستفهام وأداته في هذا الموضوع، ولعل ذلك يرجع إلى أن معاني الاستفهام استنباطية تذوقية يدركها الذوق المتأدب من خلال تتبعه للتراكيب والقيود التى يقيد بها الاستفهام، وبمعونة القرائن اللفظية والمعنوية التى تحيط بجملة الاستفهام، وهي في تنوعها تتكامل ولا تتعارض.

فالفراء (ت٢٠٧هـ) يرى أن معنى الاستفهام هنا تقرير معنى الخبر عن طريق إقرار المخاطب به، والمعنى "قد أتى على الإنسان حين من الدهر" فهذا من الخبر، لأنك تقول: فهل وعظتك؟ فهل أعطيتك؟ تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته[١].

ويتفق معه في هذا التأويل معظم قدامى المفسرين أمثال ابن جرير الطبرى[٢] والسمرقندى[٣] والرازى[٤].

وقد استدل الإمام الرازى على أن "هل" هنا بمعنى الخبر، وليست بمعنى الاستفهام (يقصد الاستفهام الحقيقي) بوجهين:

الأول: ما روى أن الصديق رضى الله عنه لما سمع هذه الآية قال: ياليتها تمت فلا نبتلى، ولو كان ذلك استفهاماً (يعنى حقيقياً) لما قال: ليتها تمت، لأن الاستفهام يجاب بلا أو نعم، فإذا كان المراد هو الخبر فحينئذ يحسن ذلك الجواب.

الآخر: أن الاستفهام على الله تعالى محال[٥] فلابد من حمله على الخبر[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢١٣/٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن لابن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ٢٥١/٢٩.

(٣) بحر العلوم للسمرقندى (ت٣٧٥هـ) ٤٢٩/٣ - ط.دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

(٤) تفسير الفخر الرازى (ت٦٠٤هـ) ٢٣٦/٣٠، ط.دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

(٥) سبق أن ذكرنا أن الاستفهام يكون طلباً للفهم أو للإفهام، ومن ثم فـ الاستفهام إذا كان بقصد إفهام المخاطبين فهو غير محال على الله تعالى وهذا ما جعل أحد الباحثين يذهب إلى جواز أن يكون الاستفهام هنا باقياً على حقيقته، مسترشداً بقول ابن جنى رحمه الله: "وقد يمكن أن تكون مبقاة في هذا الموضع على بابها من الاستفهام، فكأنه قال والله أعلم "هل أتى على الإنسان هذا؟ فلابد في جوابه من نعم ملفوظاً بها أو مقدرة". [الخصائص لابن جنى ٤٨٢/٢، وينظر: هل وأسرارها في القرآن الكريم: للباحث: فتحى عبد الرحمن أحمد حجازى، ص١٤، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة برقم (١٩١٠) ماجستير.

(٦) تفسير الفخر الرازى ٢٣٦/٣٠.

وقد كان للإمام الرازى – رحمه الله – لفتة بارعة حين ذكر أن "الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، ومتى كان كذلك فلابد له من محدث "(١).

ولعله استمد هذا المعنى للاستفهام هنا من الإمام عبد القاهر – رحمه الله – حين قال في سياق حديثه عن الاستفهام الإنكارى:"واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فان الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع ويرتدع ويعيى بالجواب... "(٢).

والزمخشرى (ت٥٣٨هـ) – رحمه الله – أضاف إلى التقرير معنى التقريب، متأثراً في ذلك بمذهبه في دلالة "هل" كما تقدم.

فالمعنى: أقد أتى على التقرير والتقريب جميعاً، أى أتى على الإنسان قبل زمان قريب(٣).

وممن قال بهذا التأويل الإمام البيضاوى في تفسيره، والشيخ محى الدين زاده والإمام شهاب الدين الخفاجى في حاشية كل منهما على البيضاوى(٤).

وقد بين الشهاب الخفاجى – رحمه الله – المقصود بكل من التقرير والتقريب، فحصر التقرير هنا في معنى حمل المخاطب على الإقرار بما دخلت عليه الهمزة المقدرة، وقيد المقرر به بمن ينكر البعث خاصة(٥)، مع أن المخاطب بالاستفهام هنا كل إنسان كما سنبين عند حديثنا عن "أل" في "الإنسان" بمشيئة الله تعالى.

أما التقريب فمعناه : تقريب الماضى من الحال وهو معنى "قد" و "هل" المرادفة لها، فلما سدت مسد الهمزة دلت على معناها ومعنى الهمزة معاً، ثم صارت حقيقة في ذلك(٦).

---

(١) السابق نفسه ٢٣٧/٣٠.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٩.

(٣) ينظر: الكشاف للإمام الزمخشرى ١٩٤/٤.

(٤) ينظر: حاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٥٨٥/٤ – ٥٨٦، ط.دار صادر، بيروت.
وحاشية الشهاب الخفاجى (ت١٠٦٩هـ) على البيضاوى٢٨٦/٨،ط.دارإحياء التراث العربى،بيروت.

(٥) حاشية الشهاب الخفاجى ٢٨٦/٨.

(٦) السابق نفسه ٢٨٦/٨.

والقول بمرادفة "هل" لـ"قد" إن عنى به حال كونها استفهامية، فهو بعيد، لأن ذلك يخالف إطباق المعربين على تسميتها حرف استفهام، وإن عنى أن معناها الأصلى "قد" ثم استعملت في الاستفهام فذلك ممنوع(١).

وقد ذكر ابن مالك (ت٦٨٦هـ) أن "هل" يتعين مرادفتها لـ"قد" إذا دخلت عليها الهمزة،ورد عليه أبو حيان بأن "هل" لا تقع مرادفة لها أصلاً(٢).

وعلى أية حال فإن المتأمل يستطيع أن يدرك أن لكل منهما دلالته الخاصة، وأن كون "هل" تأتى بمعنى "قد" معناه تحقيق معنى الخبر، وليس مرادفتها لـ"قد" إضافة إلى أن هذا التأويل يجعل "هل" ليست ذات دلالة خاصة في الكلام الذى ترد فيه، فهى مرادفة لـ"قد" في معنى التقريب، وسادة مسد همزة التقرير، وهذا يجافى الذوق المتأدب الذى يرى لكل أداة مذاقاً خاصاً يدركه أهل التذوق الأدبي.

ويرى الإمام البقاعى أن الاستفهام هنا إنكارى.

والمعنى "ما أتى عليه شيء من ذلك بعد خلقه إلا وهو فيه شيء مذكور"(٣).

وهوناظر في ذلك إلى قوله تعالى:﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]

يقول: "الاستفهام إنكارى يقطع معه بأن لا يترك الإنسان سدى"(٤).

ولعل شغف البقاعى بتلمس المناسبات بين الآيات والسور هو ما دفعه إلى هذا التأويل الذى يراعى التناسب بين مطلع سورة الإنسان وخاتمة سورة القيامة والتساوق بينهما في تأكيد أمر البعث، وذلك جرياً على الظاهر مع العلم أن الاستفهام هنا يثبت أمر المعاد والبعث مع إفادته للتقرير وغيره من المعانى.

---

(١) ينظر: عروس الأفراح للسبكى ٢٦١/٢ ((ضمن شروح التلخيص)).

(٢) ينظر: عروس الأفراح للسبكى ٢٦١/٢ ((ضمن شروح التلخيص)).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعى ٢٥٩/٨.

(٤) السابق نفسه ٢٥٩/٨.

ففي قول الإمام البقاعي – رحمه الله – تضييق لدائرة المعاني وعطاءات الاستفهام في الآية[١].

وعلى أية حال فإن الخلاف حول معنى "هل" في الآية قد شغل بعض المفسرين عن تذوق عطاءات الاستفهام وأسراره في الآية.

وغنى عن البيان أن هذه المعاني تحتاج في إدراكها إلى عمق إحساس النفوس بها ومحادثتها، حتى يستطيع المتدبر وصفها بعد أن كانت "أشبه بالأسرار الغامضة تجرى في النفس جريانا خفياً تحسها ولا تستطيع وصفها"[٢].

فالاقتصار على المعنى الظاهر دون الغوص في محيط المعاني التي يفيدها أسلوب الاستفهام لا يتفق والتدبر المأمور به في البيان القرآني.

وهذه الآية التي معنا ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ حين نقول بأن الاستفهام فيها يفيد التقرير أو التحقيق فقط، يكون هذا القول ناقصاً في كثير من الصور، وعاجزاً عن استيعاب كثير من المعاني "لأن ما في هذا الاستفهام شيء يختلف عن محض التقرير وإن أفاده، وإلا لكانت وسيلة التقرير هي طريق أدائه"[٣].

ونستطيع حين نعايش البيان العليّ ونرتع في رياضه أن ندرك أن في "هل" أشياء أخرى بعد التقرير أو التحقيق، "ففيها إثارة هذا السؤال الذي يلفت الوجدان

---

(١) وقد أوّل بعض المتصوفة الاستفهام الإنكاري في الآية على معنى النفي أي: ما أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً وظاهره – كما ذكر الإمام الألوسي – القول بقدم الإنسان في الزمان على معنى أنه لم يكن زمان إلا وفيه إنسان؟ وهو القدم النوعي كما قال به من قال من الفلاسفة وهو كفر بالإجماع. بيد أنا نقول كون "هل" هنا للإنكار منكر وأن دعوى صحة ذلك لإحدى الكبر، والذي فهمه أجلة الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الآية الإخبار الإيجابي [ينظر: روح المعاني للألوسي ٢٩/٢٦٠-٢٦١].

(٢) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢١٧.

(٣) ينظر: السابق نفسه.

إلى التفكير والغوص في الموقف، والبحث فيه عن وجه الصواب، ثم نجد سلسلة من التداعيات والرؤى تثار في القلب والخاطر حول هذه الحقيقة، ثم إن هذا السؤال يبقى بقاء كلمة الله يلح على ضمير الإنسان، وهذا كما ترى شيء غير محض التقرير والتحقيق ومدلول عليه بـ"هل""[١].

وفي هذا الاستفهام أيضاً تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام ومن ثم كانت جملة الاستفهام هنا تمهيداً مشوقاً، وتوطئة ملفتة إلى الجملة بعدها[٢] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾.

وفيه أيضاً إثبات أمر المعاد والبعث في نفوس كل الناس المؤمن به يزداد رسوخاً ويقيناً، والمنكر له لا يجد في إنكاره جدوى، حيث يواجه بحقائق يعرفها ويقر بها، فالذي أوجد الناس بعد أن لم يكونوا كيف يمتنع عليه بعد إحيازهم بعد موتهم؟ وفي ذلك من التوبيخ والتقريع لمنكري البعث عناداً واستكباراً ما فيه.

وفيه – كذلك – تذكير الإنسان بحقيقة أمره وأصل نشأته وتعريفه بعجزه وضعفه حيث أتى عليه طائفة من الزمان الممتد لم يكن شيئاً يذكر، ثم أنعم الله عليه بنعمة الخلق والإيجاد، وزوده بوسائل الإدراك، وأرشده إلى التمييز بين الخير والشر، وأرسل رسله هادين إلى الخير مرغبين فيه ناهين عن الشر منفرين منه.

والمقصود من ذلك حث الإنسان على طاعة خالقه وشكره، والتوجه إليه وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء[٣].

يؤكد ذلك قوله تعالى في خاتمة السورة ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

---

(١) دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ص ٢١٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/٣٧١.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٣٧٧٧.

والتفكر في عجائب صنع الله في مخلوقاته – وأهمها الإنسان – هو من أسباب رسوخ اليقين في القلوب.

وقد أمر الإنسان في موضع آخر من البيان العليّ أن يتفكر في أصل نشأته وينظر في حقيقة أمره ليعتبر ويتعظ، حيث يقول سبحانه ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾[الطارق:٥-٦] وسئل أبو الدرداء رضي الله عنه: أترى التفكر عملاً من الأعمال؟ فقال: نعم هو اليقين[١].

وبذا يتبين لنا المغزى في تصدير "سورة الإنسان" بهذا الاستفهام الذى يخاطب فكر الإنسان ووجدانه كي يتأمل وينظر ويعتبر.

البنية التركيبية لجملة الاستفهام:

وقد دخلت "هل" هنا على الخبر لتقرير مضمونه، وهو جملة فعلية فعلها ماضٍ ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ﴾أى: مر عليه.

وذلك قادحاً فيما ذهب إليه ابن سيده من أن "هل" لا يكون الفعل المستفهم عنه بها إلا مستقبلاً.

ولعل "ابن سيده" توهم أن الاستفهام إنما يكون عن جهل والمستقبل مجهول وأما الماضي والحال فقد وقعا وعلما، غير أنه ليس كذلك، فإن الماضي والحال وإن وقعا فليس كل أحد عالماً بهما، فهما لا يزالان محل جهالة[٢].

وقد ذكر الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ): أن المجيء أعم من الإتيان لأن الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتيّ وأتاوىّ، وبه شبه الغريب فقيل: أتاوىّ، والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير، ويقال في الخير وفي الشر وفي الأعيان والأعراض...[٣].

(١) ينظر: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د: عبد الحليم حفني، ص ٤٤، ط. الثالثة، ١٩٩٥م الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) ينظر: المغنى وحاشية الأمير عليه ٢٨/٢، ط. الحلبي، والتذكرة في معاني النحو د/محمود توفيق سعد ص٣٠.

(٣) المفردات للراغب ص ٨.

والفعل "أتى" من الأفعال الدالة على الحركة (أفعال الحركة).

وقد ورد هذا التركيب "أتى – على" خمس مرات في القرآن الكريم منها ثلاث مرات أسند فيها الفعل "أتى" لواو الجماعة ومرة واحدة مسنداً لتاء التأنيث، وأخرى مجرداً، وهي ما نحن بصدد دراستها في صدر سورة الإنسان.

والمرات الثلاث الأول كان الإتيان فيها بالذات ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾[بنى إسرائيل:١٣٨] ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾[الفرقان:٤٠] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾[النمل:١٨] والمقصود منها الاعتبار والاتعاظ بآيات الله في مخلوقاته وقوة تدبيره في كونه وملكه.

أما آية الذاريات ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[الذاريات:٤٢]

وآية الإنسان ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾

فالإتيان فيهما كان بالأمر وبالتدبير من الخالق سبحانه لبعض مخلوقاته " الريح – الزمن ".

والمقصود بيان قدرة الله تعالى وقوته القادرة على الإيجاد والإهلاك وحسن الإعادة بتدبيره وحكمته في كل ذلك.

ومعنى هذا التركيب "أتى – على" في جميع مواضعه في القرآن الكريم مر عليه، ويتسم هذا المرور بملمح القوة والظهور كما يشير إلى ذلك تركيبه مع حرف الاستعلاء[١] " على "، والمقصود من التعبير به في صدر سورة الإنسان: تأكيد ضعف الإنسان الذى مر عليه وقت قبل خلقه لم يكن شيئاً شريفاً مذكوراً بالإنسانية إلى أنعم الله سبحانه عليه بنعمة الإيجاد والخلق في أحسن صوره.

(١) ينظر: القرآن الكريم وتفاعل المعاني د: محمد محمد داود ٩١/١- ٩٢، ط دار غريب، القاهرة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

ومعلوم أن الإنسان قد أتى عليه هذا الوقت من الزمن ويد القـدرة الإلهية تعمل بحكمة ولطف على نقله من طور الحقارة والضعف والعدم، إلى طـور الإيجاد والبناء والتقويم الحسن، ومن ثم كان التعبير بفعل الإتيان "أتى" ومعناه المجيء بسهولة دون الفعل "جاء" أو الفعل "مر"، وذلك لأن المجيء وإن كان بمعنى الإتيان كما ذكر الراغب، إلا أن الإتيان فيه معنى السهولة في الحركة فهو أخص من المجيء(١).

كما أن المرور معناه المضى والاجتياز بالشيء دون تلبث(٢).

وقد جاء تركيب الفعل "مر" مع حرف الاستعلاء في القـرآن الكـريم في سياقات تدل على السير دون تلبس، والاستعلاء فيها دلالة على أن المار شامخ بأنفه لا يلقى لما مر به بالاً ولا يعيره اهتماماً(٣).

مما لا يتساوق والسياق الذى نحن بصدده في صدر سورة الإنسان.

وإنما فسر العلماء الفعل "أتى" هنا بمعنى مر عليه لأن الإنسـان أى إنسان هـو المخاطب بهذا الاستفهام بعد مضى هذا الوقت واجتيازه به والمقصود تذكيره بأصل نشأته الذى لو فكر فيه لما كان منه هذا البعد عن خالقه ومولاه، وهذا الإنكار للبعث والمعاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩].

و"أل" في قوله: ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ جنسية تفيد استغراق أفراد جنس الإنسان، وهي التى تخلفها كل حقيقة، فهى شاملة لآدم وبنيه لا آدم كما ذهـب إليـه بعض المفسرين(٤)، ولا جنس بنى آدم كما ذهب إليها الإمام الزمخشرى(٥).

---

(١) ينظر: المفردات للراغب ص ٨، ١٠٣.

(٢) ينظر: السابق ص ٤٦٦.

(٣) ينظر: من أسرار حروف الجر للدكتور: الخضرى ص ١٨٣، ١٨٤، ط الأولى، مكتبة وهبه، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

(٤) ممن قال بذلك الفراء. [معانى القرآن ٣/٢١٣]، وابن جرير الطبرى رواه عن قتادة [جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢٩/٢٥١].

(٥) الكشاف ٤/١٩٤.

أى هل أتى على كل إنسان حين كان فيه معدوم، والمقصود لم يكن شيئاً لـه نباهة ولا رفعة ولا شرف، إنما كان آدم طيناً لازباً وحمأ مسنوناً(١) وكان بنوه نطفة في الأصلاب والأرحام، وكلا الحالتين تافه وحقير لا يستحق ذكراً ولا شرفاً حتى تـنفخ فيه الروح.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جنسية أيضاً، وذلك لأن الإنسان فيه معرفة معادة فلا يفترقان، فالمراد بالإنسان واحد في الموضعين أى كل نوع الإنسان، كيف وفي إقامة الظاهر مقام المضمر فضل التقرير والتمكين في النفس فإذا اختلفا عموماً وخصوصاً فاتت الملائمة.

ولا شك أن الحمل على آدم عليه السلام في هذا لا وجه له، ولا نقض به على إرادة الجنس بناء على أنه لا عموم فيه ولا خصوص(٢).

ومعلوم أن آدم عليه السلام غير مخلوق من نطفة فكيـف يـدخل في المـراد بالإنسان في الموضع الثانى؟

نعم يدل ظاهر قوله سبحانه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ على أن المراد جنس بـنى آدم ولا يدخل في ذلك آدم عليه السلام، وبه استدل الإمام الزمخشرى على أن المراد جنس بنى آدم في الموضعين.

وأجاز الشهاب الخفاجى رحمه الله أن يراد بالإنسان فى قوله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جنس بنى آدم وهو (أى آدم) خارج أو داخل بتغليب غيره عليه أو بجعل ما للأكثر للكل مجازاً في الإسناد أو الطرف(٣).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢٩/٢٥٢، والكشاف ٤/١٩٤.

(٢) روح المعانى ٢٩/٢٦٠.

(٣) ينظر: حاشية الشهاب على البيضاوى ٨/٢٨٦.

ولكن بمزيد من التدبر والتأمل للسياق ندرك أن البيان القرآني هنا يواجه الإنسان كل إنسان، ويذكره بحقيقة أمره وأصل نشأته الأولى المتمثلة في خلق آدم أبي البشر من تراب إلى أن نفخ فيه الروح، والثانية والمتمثلة في خلق بني آدم من نطفة التناسل.

والتذكير بالنشأتين وارد في أكثر من موضع في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[الحج:٥] ويلاحظ أن السياق هنا في تقرير أمر البعث والمعاد كما هو الحال في صدر سورة الإنسان.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[المؤمنون: ١٢-١٦] وفي هذا إخبار من الحق سبحانه عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون "ثم جعلناه نطفة"، هذا الضمير عائد على جنس الإنسان[١].

فالمراد بالإنسان في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ مثل ما أريد به قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ أي كل نوع الإنسان، أما قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فقد ذكر هنا على سبيل الإدماج[٢].

فسياق الكلام هنا لتقرير أن الله خلق الإنسان بعد أن كان معدوماً خامل الذكر لغاية هي الابتلاء وقد "أدمج في خلال ذلك كيفية خلق الإنسان من نطفة التناسل لما في تلك الكيفية من دقائق العلم الإلهي والقدرة والحكمة"[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٢٧/٣، ط.المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٢) من ألوان البديع المعنوي الإدماج وهو: أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر.[عروس الأفراح للسبكي ٣٩٨/٤ (ضمن شروح التلخيص)].

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٧٣/٢٩.

فالإدماج هنا يؤكد ما قررته جملة الاستفهام، وما ترتب على ذلك من تقرير خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، وذلك وفق حكمته تعالى ومشيئته القادرة.

وقوله ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي طائفة من الزمان الطويل الممتد[١].

والحين طائفة محدودة من الزمان وهو شامل للكثير والقليل، لأنها إما مدة الحمل إن أريد النطفة، أو هي مدة مادة آدم المخمرة طيناً إن أريد العنصر[٢].

ولعل تنكير "حين" لإفادة عموم المدتين مع ما فيها من الإبهام الموحي بضعف الإنسان وقدرة الرحمن سبحانه وتعالى.

والدهر: الزمان الممتد غير المحدد ويقع عند الجمهور على مدة العالم جميعها[٣].

منزلة الجملة الحالية في هذا التركيب:

وقوله ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي لم يكن شيئاً له نباهة ولا رفعة ولا شرف إنما كان طيناً لازباً وحماً مسنوناً[٤]، أو شيئاً تافهاً حقيراً كالنطفة في الرحم[٥].

وهذه الجملة محلها النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور.

ومجيء الفعل المضارع منفياً حالاً من غير الواو كثير وحسن في الكلام ولا يهتدى إلى وضعه بالموضع المرضي إلا من كان صحيح الطبع كما يقول الإمام عبد القاهر ومنه قول أرطاة بن سهية وهو لطيف جداً:

إن تلقني لا ترى غيري بناظرة   تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد[٦]

---

(١) الكشاف ١٩٤/٤.

(٢) حاشية الشهاب ٢٨٦/٨.

(٣) السابق نفسه ٢٨٦/٨.

(٤) جامع البيان للطبري ٢٥٢/٢٩.

(٥) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٥٨٦/٤.

(٦) أبياته في الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ٣٤/١٣، ط.دار الثقافة، بيروت.

فقوله "لا ترى" في موضع الحال[(١)]، وقد ضمه الشاعر إلى الشرط وجوابه في إثبات افتخاره بشجاعته وقوته أمام خصمه.

وبذا يتبين لنا أن الجملة الحالية عنصر مهم في التركيب وفي إثبات المعنى المراد، بل إنها في الآية لا يفهم المعنى المقصود من الاستفهام بدونها، فهي جزء من تركيب جملة الاستفهام.

وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى تلاحم الجمل الحالية الخالية من الواو مع أجزاء الكلام في إثبات المعنى المقصود حين قال:" اعلم أن كل جملة وقعت حالاً ثم امتنعت من الواو، فذلك لأجل أنك عمدت إلى الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد"[(٢)].

ويجوز أن يكون محل جملة ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ الرفع على الوصف لـحين، كقوله تعالى:﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾[لقمان:٣٣]، أي: لا يجزى فيه، فالعائد محذوف والتقدير: لم يكن فيه الإنسان شيئاً مذكوراً[(٣)].

وعلى كلا الوجهين فالجملة جزء مهم في إثبات مضمون الخبر الذى دخلت عليه "هل" لتقرره وتثبته والتقرير هنا يقتضى الإقرار بذلك لا محالة لأنه معلوم بالضرورة.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) السابق نفسه ص ٢١٣.

(٣) ينظر: الكشاف ١٩٤/٤، و التحرير والتنوير ٣٧٢/٢٩.

الاستئناف البياني وعلاقته بجملة الاستفهام:

ولما كان السامع يتشوق ويتطلع لما يرد بعد هذا التقرير جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليبين أن الله سبحانه خلق الإنسان بعد أن كان معدوماً، فهو استئناف بيانى مترتب على التقرير الذى دلت عليه جملة الاستفهام والتى تضمنت تشويقاً وتشوقاً لما يرد بعدها من الكلام، وهذا هو سر فصل هذه الجملة عن جملة الاستفهام، وهذا يؤكد شدة ترابط التراكيب المعبرة عن تلاحم وتناسل المعانى في البيان القرآنى.

والتوكيد في قوله تعالى:﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يقصد منه تقوية مضمون الكلام عند المخاطبين من بنى الإنسان وتقريره في نفوسهم وإن كانوا غير منكرين له[(١)].

فالتوكيد هنا يهدف إلى زيادة تقرير المعنى "خلق الله للإنسان بعد أن كان معدوماً" في النفوس وذلك حتى يبلغ بالمؤمن عين اليقين، ويحمل المنكر للبعث والمعاد على أن يقلع عن إنكاره ويسلم بوقوع البعث لجميع الخلائق، وهذا يدعم المقصود من الاستفهام السابق ويقرره، وهو أقرب إلى روح البيان القرآنى المترابط الأجزاء من قول من ذهب إلى أن "تأكيد الكلام هنا" لتنزيل المشركين منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لعدم جريهم على موجب العلم حيث عبدوا أصناماً لم يخلقوها"[(٢)].

وقد ذكر العلماء أن "الخصوصية البلاغية في الكلام الممتاز صالحة لأن تشير إلى أكثر من معنى"[(٣)].

والبيان العلىّ معين لا ينضب، والمهم أن يعرف المتأمل كيف يوجه خصائص الأساليب ويدرك منها ما يتساوق مع مقاماته.

---

(١) ينظر: خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى ص ٦٠، ط مكتبة وهبة، ط الثالثة.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٧٣/٢٩.

(٣) خصائص التراكيب ص ٦٤.

وقوله: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ﴾ بيان لكيفية خلق الإنسان من نطفة التناسل، ذكر على سبيل الإدماج كما تقدم بيانه.

و"النطفة": كل ماء قليل في وعاء[١]، سمى بها ماء التناسل الذى يستقر في الرحم شيئاً تافهاً حقيراً، فيخلق الله منه الإنسان، فالتنكير فيها لإفادة التقليل والتحقير.

و"أمشاج": وصف للنطفة، وهو مشتق من المشج وهو الخلط أى نطفة مخلوطة من مشجت بين الشيئين مشجاً أى خلطت[٢].والشيئان هنا ماء الرجل وماء المرأة.

وصيغة "أمشاج" ظاهرها صيغة جمع، وعلى ذلك حملها الفراء وابن السكيت والمبرد[٣].

وذهب الزمخشرى إلى أن "امشاج" مفرد كقولهم: برمة أعشار[٤] وبرد أكياش[٥] وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للمفرد.

والمعنى: من نطفة قد امتزج فيها الماءان[٦].

والمهم أن " أمشاج " إذا كان مفرداً فوصف نطفة به لا يحتاج إلى تأويل، وإذا كان جمعاً كان وصف النطفة به باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، فوصف النطفة بجمع الاسم للمبالغة، اى شديدة الاختلاط[٧].

والتعبير بـ"أمشاج" يومئ إلى خلق الإنسان على طبائع مختلفة وأمزجة متفاوتة مما يعظم أجره عند ربه إن هو جاهد ما يتنازعه من مختلفات[٨].

---

(١) جامع البيان للطبرى ٢٩/٢٥٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور – مادة " مشج"

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/٢١٤.

(٤) البرمة: القدر، أعشار: متكسرة كأنها صارت عشر قطع.

(٥) ثوب غزل غزله مرتين.

(٦) الكشاف ٤/١٩٤.

(٧) ينظر: حاشية الشهاب ٨/٢٨٧ وروح المعاني للألوسي ٢٩/٢٦١،والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/٣٧٤.

(٨) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٢٦١.

كما يشير إلى دقائق العلم الإلهي والقدرة والحكمة في مزج أجزاء مختلفة الخواص متباينة الأوصاف وخلطها حتى تصير شيئاً واحدا (نطفة) يخلق منها الإنسان في أحسن تقويم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وجملة "نبتليه" في موضع الحال من فاعل خلقنا أو مفعوله، وهي حال مقدرة أى: خلقناه مريدين ابتلاءه في المستقبل، أى بعد بلوغه طور العقل والتكليف وهذه الحال كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، تريد قاصداً به الصيد غداً[١].

وقد جاءت هذه الحال معترضة بين جملة "خلقنا" وجملة "فجعلناه" المفرعة عنها، وذلك لبيان عظم هذا الابتلاء وأهميته في سعادة الإنسان أو شقاوته، ومن ثم قدم اهتماماً به، وذلك لأن الابتلاء أى التكليف الذى يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير، فكان مقتضى الظاهر أن يقع "نبتليه" بعد جملة "إنا هديناه السبيل"[٢].

المقصود بالابتلاء:

وحقيقة الابتلاء: الاختبار لتعرف حال الشيء.

وهو هنا كناية عن التكليف بأمر عظيم، لأن الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلفين به في الوفاء بإقامته[٣].

ويجوز أن يكون الابتلاء مستعاراً لنقل الإنسان من طور وحال إلى طور وحال آخر، لأن المنقول يظهر في كل طور ظهوراً آخر، كظهور نتيجة الامتحان بعده[٤] وهو من الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل "نبتليه" وتبرز قيمة الاستعارة هنا في الإبانة والكشف عما آل إليه حال الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، حيث أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد، وتعهدته يد القدرة الإلهية بالنقل من حال إلى حال أحسن منها حتى استقام أمره على أحسن صورة أرادها الخالق سبحانه.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشرى ٤/١٩٤، و التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/٣٧٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/٣٧٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/٣٧٥.

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشرى ٤/١٩٤، ١٩٥، وحاشية الشهاب ٨/٢٨٧.

التعبير بفاء التفريع بين الجمل:

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ معطوف على جملة الخلق مفرع عنها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ فالفاء فيه للتفريع وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التى كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه "بالسميع البصير" بصيغة المبالغة ولم يقل: فجعلناه سامعاً مبصراً، لأن سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلاً وتميزاً في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان.

فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل، وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه[1].

وهذا امتنان من الحق سبحانه على الإنسان حيث جعله بهاتين الصفتين بعد أن خلقه وسواه وعدله ولذا عبر بفعل الجعل "فجعلناه".

والتعبير بهاتين الصفتين "كناية عن التمييز والفهم، إذ آلتهما سبب ذلك"[2].

بمعنى أن حصول التمييز والفهم مترتب عليهما ولازم لهما، فهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات، من تلقى الشرائع ودعوة الرسل والنظر في بديع صنع الخالق سبحانه وأدلة وجوده.

والتعبير بهما أيضاً تخلص إلى ما ميز الله به الإنسان من جعله تجاه التكليف واتباع الشرائع، وتلك خصيصة الإنسان التى بها ارتكزت مدنيته وانتظمت جامعاته، ولذلك أعقبت هذه الجملة بقوله[3]: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ..﴾ الآية

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ من الاستئناف البيانى لبيان ما نشأ عن جملة "نبتليه" ولتفصيل جملة "﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾، وفيه أيضاً تخلص إلى الوعد على الشكر والوعيد على الكفر[4].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٧٥/٢٩.
(٢) البحر المحيط ٣٥٩/١٠.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٧٥/٢٠.
(٤) ينظر: السابق نفسه ٣٧٥/٢٩.

أما كونه لبيان ما نشأ عن جملة "نبتليه" فلأن الابتلاء بالتكليف به يظهر امتثال الإنسان لربه أو عصيانه له، ومن ثم بينت هذه الآية انقسام الناس نتيجة الابتلاء إلى شاكرين وكافرين، وذلك بعد هدايتهم إلى سبيل الخير وإرشادهم إليه

وأما كونه لتفصيل جملة ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فذلك لأنه مرتب عليه فالهداية إلى سبيل الخير إنما تكون بعد تحقق أدواتها، من التمييز والفهم القائم على مدركات الحواس.

وفي قوله: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ تخلص من سياق الامتنان بالنعم إلى سياق الوعد والوعيد والترغيب والترهيب مما كشفت عنه آيات السورة بعد المطلع وحتى الخاتمة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

ويتخلل ذلك تسلية النبى ﷺ وتصبيره على تحمل مشاق دعوته التى تحمل هداية الله للعالمين.

بلاغة التمثيل في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾:

قوله:﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾أى أرشدناه إلى سبيل الخير والنفع .

وهداية السبيل تمثيل لحال المرشد بحال من يدل السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سيره.

وهذا التمثيل ينحل إلى تشبيهات أجزاء الحالة المركبة المشبهة بأجزاء الحالة المشبه بها، فالله تعالى – مصدر الهداية – كالهادى، و الإنسان يشبه السائر المتحير في الطريق، وأعمال الدين تشبه الطريق، وفوز المتبع لهدى الله يشبه البلوغ إلى المكان المطلوب[١].

وفي ذلك بيان بأن الله تعالى لم يترك الإنسان متحيراً، بل أرشده إلى الحق وإلى ما فيه النفع، بواسطة الرسل الذين أرسلهم بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة التى تأخذ بالإنسان إلى الفوز بسعادة الدنيا وتعيم الآخرة.

وبذا تقطع الأعذار أمام الذين أدخلوا على أنفسهم ضلال الاعتقاد ومفاسد الأعمال ولم ينتفعوا بهدى الله تعالى.

وتأكيد الخبر بـ"إن" للرد على المشركين الذين يزعمون أن ما يدعوهم إليه القرآن باطل[٢].

قوله :﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ حالان من مفعول "هديناه" و"إما" يمكن أن تكون للتفصيل باعتبار تعدد الأحوال مع اتحاد الذات، أى هديناه ودللناه على ما يوصل إلى البغية في حالتيه جميعاً من الشكر والكفر.

أو تكون للتقسيم للمهدى باختلاف الذوات والصفات أى دللناه على الهداية والاسلام، فمنهم مهتد مسلم ومنهم ضال كافر[٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٧٥/٢٩.

(٢) السابق ٣٧٦/٢٩.

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي ٢٦٢/٢٩، ٢٦٣.

وفي هذا التعبير بيان لحال الإنسان وهو يختار الطريق الذى يسلكه بعد أن هداه الخالق سبحانه وأعانه وأمده بالطاقات والمدارك التى تعينه على سلوك الطريق إلى ربه، وتلك هي حكمة الابتلاء وثمرته فمن سلك طريق الطاعة والتقرب إلى ربه وخالقه فهو الشاكر، ومن جحد النعم وسلك طريق الضلال والفساد فهو الكفور.

ولعل التعبير بصيغة المبالغة "كفوراً" "الموغلة في الدلالة على الكفران"[١]، يومئ إلى عظم جرم الإنسان الجاحد بنعم الخالق سبحانه عليه، وإلى تنوع طرق الضلال والمعصية التى سرعان ما يتوغل فيها الإنسان الكفور.

كما يكشف عن أن الكفر كثر من يتصف به، ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر[٢]، قال تعالى:﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ ١٣].

وأحسب أن هذا التوجيه أنسب وأقرب إلى روح البيان القرآنى من التوجيه القائل بأن "إيراد الكفور بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما، وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط"[٣]، وذلك لأن قولهم "لمراعاة الفواصل" تعليل لفظى لا يمس المعنى إلا من حيث الانسجام والتنغيم وأثرهما في النفس.

أما قولهم :"إنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط" فترد عليه الآية التالية في وعيد الكافرين ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً ﴾[الإنسان ٤] حيث عبر باسم الفاعل "الكافرين" ولم يعبر بصيغة المبالغة بل إنه عبر في موضع آخر بالفعل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾[البينة ٦].

---

(١) في ظلال القرآن ٣٧٨٠/٦.

(٢) البحر المحيط ٣٦٠/١٠.

(٣) روح المعاني للألوسي ٦٣/٢٩.

ونستطيع أن نخلص مما سبق بالآتى:

أولاً : تعدد تأويلات العلماء لمعنى الاستفهام يرجع إلى أن معانى الاستفهام استنباطية تذوقية يدركها الذوق المتأدب متأثراً بموهبته وتكوينه الفكرى والثقافى.

ثانياً : لكل أداة دلالتها الخاصة ومذاقها الذى يدركه أهل التذوق الأدبى.

ثالثاً : معانى الاستفهام تحتاج في إدراكها إلى عمق إحساس النفوس بها ومحادثتها، إذ هي أشبه بالأسرار التى لا تتكشف إلا بعد طول تأمل وتدبر.

رابعاً : الجملة الحالية عنصر مهم في التركيب وفي تأدية المعنى المراد، فهى متلاحمة مع أجزاء الكلام وليست فضلة فيه كما يقول النحاة.

خامساً : تلاحم الألفاظ والتراكيب في تدعيم المعانى المقصودة من أسلوب الاستفهام .

المبحث الثانى

بلاغة الاستفهام في فاتحة "سورة النبأ"(١)

استفتح الحق سبحانه وتعالى سورة النبأ بقوله جل اسمه:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ١-٥].

وفي هذا الافتتاح استنكار لتساؤل المشركين، وتعجيب من أن يكون هذا الأمر العظيم موضع تساؤل، ومن ثم تهديدهم يوم يعلمون حقيقته، وفيه أيضاً استهوال واستعظام وتفخيم لحقيقة الذى يختلفون فيه، ويتساءلون عنه.

وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة(٢)، وقد صور البيان القرآنى هذا المشهد ليكبتهم ويخرس ألسنتهم، ويقرر أمر البعث والمعاد ويثبت أنه حق لا يجادل فيه إلا جاحد معاند .

---

(١) سورة النبأ: مكية، وآياتها أربعون آية، نزلت بعد سورة المعارج وقبل سورة النازعات قبل الهجرة. وقد اتفقت اكثر المصاحف، وكتب التفسير وكتب السنة على هذه التسمية، وفي صحيح البخارى والكشاف وتفسير ابن عطية اسمها "عم يتساءلون"، وعند القرطبى سورة "عم". [ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥/٣٠].

(٢) حكى المفسرون في تفسير النبأ العظيم ثلاثة أوجه:

الأول : انه يوم القيامة والبعث . [الكشاف ٢٠٦/٤].

والثانى: أنه القرآن. [معانى القرآن للفراء ٢٢٧/٣].

والثالث: أن النبأ العظيم هو نبوة محمد ﷺ [حكاه صاحب الكشاف ٢٠٧/٤].

وذكر الإمام الرازى أن الأول هو الأقرب ويدل عليه وجوه :

أحدها: قوله تعالى:﴿سيعلمون﴾ والظاهر أن المراد منه : أنهم سيعلمون هذا الذى يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة، ومعلوم أن ذلك هو يوم القيامة.

وثانيها: أنه تعالى بين كونه قادراً على جميع الممكنات بقوله:﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ الآيات، وذلك يقتضى أنه تعالى إنما قدم هذه المقدمة لبيان كونه قادراً على إقامة القيامة.

وثالثها: أن العظيم اسم هذا اليوم، بدليل قوله تعالى:﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ٤-٦]، ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه، فكان تخصيص اسم العظيم به لائقاً. [ينظر تفسير الفخر الرازى ٤/٣١- ٥].

مقصود سورة النبأ:

ومقصود هذه السورة الدلالة على أن يوم القيامة ثابت لا يحتمل شكاً ولا خلافاً بوجه.

وقد كان المشركون ينفونه قبل بعث النبي ﷺ، ثم صاروا بعد بعثه في خلاف مع المؤمنين[١]، أما فيما بينهم فكانوا يتساءلون عنه استهزاء وسخرية.

فجاء البيان القرآني في هذه السورة لإثبات أمر المعاد والبعث، وقد اقتضى هذا تهديدهم على إنكارهم له، وترغيبهم في الإيمان به، فكان سياقها في هذا مشابهاً لسياق سورة المرسلات، وهذا هو وجه ذكرها بعدها[٢].

علاقة فاتحة سورة النبأ بخاتمة سورة المرسلات:

أخبر الحق سبحانه في "سورة المرسلات" بتكذيب المشركين يوم الفصل، وبين أن لهم بذلك الويل والعذاب المضاعف يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨-٤٠]. ثم تحدث في خاتمتها معجباً من أمر هؤلاء المشركين وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون، وأخبر بأنهم إن كفروا بالقرآن لم يؤمنوا بعده بشيء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٥٠].

فمن لم يؤمن بهذا الحديث لم يؤمن بحديث غيره، فإنه لا شيء يقاربه ولا يدانيه، ومثل هذا إنما يقال عند مقاربة اليأس من الموعوظ، والعادة قاضية بحلول العذاب إذ ذاك وبنزول البأس فهو من أعظم أنواع التهديد والوعيد[٣]، للمشركين الذين يكذبون بالقرآن وبما جاء به، ومن جملة ما جاء به الغيبيات

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٢٩٤.
(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن ص٣٣٧.
(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٢٩٣.

ومن ثم جاء افتتاح "سورة النبأ" بأن ما خالفوا فيه وكذبوا الرسول في أمره لا يقبل النزاع لما ظهر من بيان القرآن لحكمة الرحمن التي لا يختلف فيها اثنان مع الإعجاز في البيان فقال معجباً منهم غاية العجب زاجراً لهم ومنكراً عليهم ومتوعداً لهم ومفخماً للأمر بصيغة الاستفهام منبهاً على أنه ينبغي أن لا يعقل خلافهم ولا يعرف محل نزاعهم[١].

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ الآيات (١-٥).

فالحديث هنا استمرار في وعيد المشركين وتهديدهم، والتعجب من شأنهم في تكذيبهم بالقرآن، وعدم اهتدائهم به، وتساؤلهم استهزاء عما جاء به من الأمور العظام والحقائق الثابتة والتي لا يتطرق إليها شك أو نكران.

ومن ثم جاء التعبير بصيغة الاستفهام في خاتمة "المرسلات" وفاتحة "النبأ" لينبئ عن شدة الاعتلاق بينهما.

معاني الاستفهام في فاتحة سورة النبأ:

جاء الاستفهام في صدر "سورة النبأ" معبراً عن معان كثيرة أسهم في بيانها والكشف عنها السياق والقرائن اللفظية والمعنوية، من هذه المعاني:

- الاستنكار لتساؤل المتسائلين من المشركين.
- والتعجيب من شأنهم حين وضعوا هذا الأمر العظيم موضع تساؤل.
- التهويل والتفخيم والتعظيم لتلك الحقيقة التي يختلفون فيها.

ومما يدعم هذا المعنى التعبير القرآني في جواب الاستفهام ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

قال الراغب الأصفهاني: "النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ويكون صادقاً"[٢].

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٢٩٤.
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٨٢.

التشويق بطريقة البيان والتفصيل بعد الإبهام والإجمال في السؤال وهذا من شأنه أن يمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن[1]، حيث جاءها بعد ترقب وتشوف كما ذكر علماء البلاغة[2].

وإنما كان في الإيضاح بعد الإبهام فضل التمكن لأن الإشعار به إجمالاً يقتضي التشوق له، والشيء إذا جاء بعد التشوق يقع في النفس فضل وقوع ويتمكن أي تمكن. أيضاً لأن الإجمال يشعر به فيقع التشوق له فإذا نيل بالتشوق والشوق كان ألذ، بخلاف ما إذا نيل بلا شوق وطلب[3].

وأضاف أبو حيان — رحمه الله — إلى جملة المعاني المتقدمة، معنى التقرير، بناء على أن الاستفهام هنا خطاب لغير معين ومقتضى القول "أن يجيب مجيب فيقول: يتساءلون عن النبأ فاقتضى إعجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذى يقتضيه الحال والمحاورة اقتضاء بالحجة وإسراعاً إلى موضع قطعهم"[4].

وإنما بادر المحتج بالجواب بقصد بيان أن السؤال لم يكن يعرف منه معرفة الجواب منهم، "إنما كان للتعجيب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم بكشف الأمر الذى يتساءلون عنه وبيان حقيقته وطبيعته"[5].

وغني عن البيان أن إيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح، ونظيره قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

وبذا يتبين لنا أن افتتاح "سورة النبأ" بهذا الاستفهام حمل جملة من المعاني التى قصد البيان القرآنى إلى إبلاغها تعظيما لشأن البعث والمعاد، وتبكيتاً وإفحاماً للمتسائلين عنه من المشركين.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٦/٣٠.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٣/٢١٠- ٢١١.

(٣) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٣/٢١٠- ٢١١.

(٤) البحر المحيط ٣٨٣/١٠.

(٥) في ظلال القرآن ٣٨٠٣/٦.

ومن ثم كان من الفواتح البديعة لما فيه من أسلوب عزيز غير مألوف، ومن تشويق وتهويل وتعجيب.

وإذ كان هذا الافتتاح مؤذناً بتعظيم أمر كان مؤذناً بالتصدى لقول فصل فيه، ولما كان في ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضهم يومئذ يجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال[1] وحسن الابتداء.

البنية التركيبية لجملة الاستفهام:

جاء البناء التركيبي لجملة الاستفهام في صدر سورة النبأ هكذا:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ حرف الجر "عن" + "ما" الاستفهامية + الفعل "يتساءلون".

والمعنى : عن أى شيء يتساءلون؟

فاللفظ لفظ استفهام، والمعنى تفخيم القصة والشأن[2].

وأصله: عن ما يتساءلون، فأدغمت النون في الميم، لأن الميم تشرك النون في الغنة في الأنف[3]، والغنة جعلتهما كالمتقاربين في المخرج[4]، فصارت "عمّا يتساءلون"؟

وإنما حذفت الألف، لاتصال "ما" بحرف الجر حتى صارت كجزء منه لتنبئ عن شدة الاتصال، أو تفرقة بين "ما" الاستفهامية و "ما" الاسمية "الموصولة"، أو تخفيفاً، فإنه لفظ كثير التداول على اللسان[5].

ويتعلق "عم" بالفعل "يتساءلون"، فأصل الترتيب (يتساءلون عما) قدم اسم الاستفهام لأنه لا يقع إلا في صدر الكلام المستفهم عنه به، وقدم معه حرف الجر لاقترانه به، فهو لا ينفصل عن مجروره[6].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٦/٣٠.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١هـ) ٢٧١/٥، تحقيق: عبد الجليل شلبي، ط.عالم الكتب بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

(٣) السابق نفسه.

(٤) اجتماع الحرفين المتجانسين والمتقاربين في الكلام يوجد ضرباً من الثقل مما يستوجب دفعه بطريق من الطرق، ومن جملة طرق دفعه الإدغام لأنه يورث ضرباً من الخفة، وأحد المتقاربين لا يدغم في الآخر إلا بعد قلبه بالآخر تحقيقاً للمماثلة الموجبة للإدغام. [حاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٦٠٣/٤].

(٥) ينظر: تفسير الفخر الرازى ٣/٣١.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٧/٣٠.

قرأ الجمهور (عمّ) بحذف الألف وهو الأكثر استعمالاً.

وقرأ عكرمة وعيسى بن عمر (عما) بالألف، وهو الأصل، إلا أن استعماله قليل، قال ابن جني: "هذا أضعف اللغتين، أعني إثبات الألف في (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر، وروينا عن قطرب لحسان:

على ما قامَ يشتُمُني لئيمٌ كخنزيرٍ تمرّغَ في رمادِ[1]

فأثبت الألف مع حرف الجر[2].

وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية: "عمه" بهاء السكت، أجرى الوصل مجرى الوقف، لأن الأكثر في الوقف على (ما) الاستفهامية هو إلحاق هاء السكت إلا إذا أضيفت إليها فلابد من الهاء في الوقف نحو: حي مه[3].

ويمكن أن يقف ويبتدئ بـ(يتساءلون عن النبأ العظيم) على أن يضمر يتساءلون، لأن ما بعده يفسره، كشيء مبهم ثم يفسره[4].

والتعبير بـ(ما) الاستفهامية ينبئ عن عظم شأن المسئول عنه وفخامة قدره، ويشعر بأنه خارج عن دائرة علوم الخلق لعظمته، فحقه أن يعتنى به ويسأل عنه، ومن ثم جاء التعبير هنا على نهج الاستفهام، وعلى طرز مخاطبات العرب، فالاستفهام بالنسبة إلى الناس[5].

وقد وضعت (ما) لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها تقول: ما الروح؟ وما الجن؟ والمراد طلب ماهيتها وشرح حقائقها وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، ص ٧٩، ط.دار صادر ، بيروت.

(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جنى ٣٤٧/٢، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

(٣) البحر المحيط ٣٨٣/١٠.

(٤) تفسير الفخر الرازى ٣/٣١.

(٥) ينظر: حاشية الشهاب ٣٠١/٨.

ثم إنها قد تطلق على الشيء العظيم الشأن المفخم القدر وإن لم يكن مجهولاً عند المتكلم على طريق الاستعارة التبعية حيث شبه الأمر المحقق شأنه بما يخفى جنسه على الناس لا على السائل والمتكلم فيسأل عنه لانتفاء نظيره، ويستعمل لفظ المشبه به في المشبه، فالاستفهام والتشبيه بالنسبة إلى الناس[1].

والتساؤل: تفاعل، وحقيقة صيغة التفاعل تفيد صدور معنى المادة المشتقة منها من الفاعل إلى المفعول، وصدور مثله من المفعول إلى الفاعل[2].

والمقصود بها هنا: ما كان يفعله المشركون من سؤال بعضهم بعضاً عن خبر البعث سؤال تهكم واستهزاء، فيقول أحدهم: هل بلغك خبر البعث؟ ويقول الآخر: هل سمعت ما قال؟ فإطلاق التساؤل حقيقي لأنه موضوع لمثل تلك المسألة وقصدهم منه غير حقيقي بل تهكمي، وهذا ما جعل بعض العلماء يحمله على المجاز الصوري[3].

والتعبير بالفعل المضارع (يتساءلون) ينبئ عن استحضار موقف المشركين وهم يجددون السؤال فيما بينهم عن البعث تهكماً واستهزاءً، وأن هذا الفعل كان دأبهم المتجدد باستمرار مما يوحي بالإصرار على العناد والتكذيب، ويكشف عن غيبة العقول، ومن ثم كانت هذه الصورة وغيرها بمثابة "طرقات متوالية على الحس، طرقات قوية عنيفة عالية، وصيحات بنوَّم غارقين في النوم ... أو بسكارى مخمورين..."[4].

فالضمير في (يتساءلون) لأهل مكة، وإن لم يسبق ذكرهم نصاً للاستغناء عنه بحضورهم حساً، مع ما في الترك من التحقير والإهانة، للإشعار بأنه مما يصان عنه ساحة الذكر الحكيم[5].

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازى ٤/٣١، وحاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٦٠٣/٤، وحاشية الشهاب ٣٠١/٨.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٧/٣٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٨٩/٣٠.

(٤) في ظلال القرآن ٣٨٠٠/٦.

(٥) ينظر: حاشية الشهاب ٣٠١/٨.

وإنما عبر عن جدالهم وإنكارهم وعنادهم بمطلق السؤال لشدة التعجيب من حالهم التي تنطوي على سوء قصد من التساؤل، أو لأنه كان فيهم من يقطع بإنكار البعث، ومنهم من يشك فيه، وهذا معنى قوله تعالى(١): ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

علاقة قوله تعالى "عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٣)" بما قبله:

قوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ جواب الاستفهام، وهو مستعمل بياناً لما أريد بالاستفهام من الإجمال بقصد التفخيم، فبين به جانب التفخيم، ونظيره قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢] فكأنه قيل: هم يتساءلون عن النبأ العظيم(٢).

وفي هذا البيان إعلام بأن ذلك الإجمال والإبهام في السؤال لم يكن إلا بقصد تعظيم شأن المسئول عنه وتفخيم قدره.

يؤكد ذلك التعبير عنه بـ(النبأ) ومعناه "الخبر ذو الفائدة العظيمة" – كما تقدم –، فلا يقال للخبر عن الأمور المعتادة (نبأ)، وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ (نبأ) في كلام البلغاء.

ووصف (النبأ) بـ(العظيم) هنا زيادة في التنويه به لأن كونه وارداً من عالم الغيب زاده عظم أوصاف وأهوال، فوصف النبأ بالعظيم باعتبار ما وصف فيه من أحوال البعث فيما نزل من آيات القرآن قبل هذا(٣)، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٨] ففي ذلك كله تنبيه على أنه من حقه أن يذعن له كل سامع ويهتم بأمره، لا أن يشك فيه ويجعله موضعاً للنزاع(٤)، أو التهكم والاستهزاء.

(١) الكشاف للزمخشري ٢٠٧/٤.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٩/٣٠.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٩/٣٠، ١٠.
(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٢٩٥/٨.

وفي كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه(١):

أحدها: وهو قول البصريين أن قوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ كلام تام وجملة مستقلة عبر فيها بأسلوب الاستفهام، وقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ جواب الاستفهام، وبيان لشأن المفخم في جملة الاستفهام.

والتقدير: يتساءلون عن النبأ العظيم، إلا أنه حذف يتساءلون في الآية الثانية، لأن حصوله في الآية الأولى يدل عليه.

وثانيهما: أن يكون قوله تعالى: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ استفهاماً متصلاً بما قبله والتقدير (عم يتساءلون أعن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون؟).

إلا أنه اقتصر على ما قبله من الاستفهام إذ هو متصل به، وكالترجمة والبيان له كما قرئ في قوله تعالى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] بكسر الألف من غير استفهام، لأن إنكارهما إنما كان للبعث، ولكنه لما ظهر الاستفهام في أول الكلام، اقتصر عليه، فكذا ههنا.

وثالثها: – وهو اختيار الكوفيين – أن الآية الثانية متصلة بالأولى لفظاً على تقدير: لأى شيء يتساءلون عن النبأ العظيم، و"عم" في المعنى لأى شيء، وهذا قول الفراء(٢).

والاتصال على الوجهين الأول والثاني معنوي، وهذا يعنى استقلال كل جملة بمفهومها مع شدة ارتباطها بأختها في المعنى مما ينبئ عن تكثير الفائدة وعظمها، ويكشف عن ترابط آى الذكر الحكيم وتناسل معانيها.

وبذا يتبين لنا أن قوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ مستأنف لبيان عظم شأن المفخم في جملة الاستفهام وهذا هو الأقرب والأظهر والله أعلم.

(١) حكى هذه الوجوه الإمام الفخر الرازى في تفسيره ٥/٣١.
(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢٢٧/٣.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ توبيخ شديد للمتسائلين والمختلفين، وتسفيه لعقولهم وضمائرهم التي اشتد اختلافها، وكثرت مراجعتها في أمر عظيم الشأن لا ينبغي أن يتطرق إليه أدنى شك، فكيف إذا ظلوا على مساءلتهم عنه واختلافهم فيه، مع عظمه وعظم ظهوره؟!

"والعظيم لا ينبغي الاختلاف فيه بوجه، فإن ذا المروءة لا ينبغي له أن يدخل في أمر إلا وهو على بصيرة فكيف به إذا كان عظيماً، فكيف به إذا تناهى عظمه، فكيف به إذا كان أهم ما يهمه؟، فإنه يتعين عليه أن يبحث عنه غاية البحث ويطلب فيه الأدلة، ويفحص عن البراهين ويستوضح الحجج حتى يصير من أمره بعد علم اليقين إلى عين اليقين من حين يبلغ مبلغ الرجال إلى أن يموت، فكيف إذا كان بحيث تتلى عليه الأدلة وتجلى لديه قواطع الحجج وتجلب إليه البينات وهو يكابر فيها ويماري، ويعاند ويداري ؟!"[1].

وهذا يكشف لنا عن سر انتقال البيان القرآني من الاستنكار والتوبيخ، إلى التهديد والوعيد الشديد في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فهو ردع عن التساؤل والاستهزاء وزجر عن الاختلاف والمراجعة، ووعيد على العناد والمكابرة.

والتكرار فيه للمبالغة في التهديد والوعيد، يقوى ذلك حذف مفعول العلم بقصد الإبهام لتذهب فيه عقولهم كل مذهب أى : سيعلمون ما يحل بهم.

وقد حاول بعض العلماء تقدير المفعول بأنه : سيعلمون حقيقة الحال وما عنه السؤال، أو سيعلمون ما يحل بهم من العقوبات والنكال[2].

ولكن يبقى التهديد مبهماً وملفوفاً، وهذا أوقع وأعمق في التخويف، وهذا يتناغى من التهديد والوعيد المتكرر في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مما ينبئ عن تلاؤم المعاني وتناسبها في البيان القرآني .

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢٩٥/٨.

(٢) حاشية الشهاب ٣٠١/٨ بتصرف.

و(ثم) هنا للاستبعاد والتفاوت الرتبي بين المعطوف والمعطوف عليه فكأنه قيل : لكم ردع وزجر شديد بل أشد وأشد، وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله ولذا خص عطفه بـ (ثم) غالباً [1].

ويجوز أن يكون الغرض من التكرير التأكيد والتشديد [2].

ونستطيع أن نخلص مما سبق بالأمور الآتية:

أولاً : أن الاستفهام في صدر سورة النبأ جاء معبراً عن معانٍ كثيرة كشف عنها السياق والقرائن اللفظية والمعنوية .

ثانياً : برز من هذه المعاني معنيان تعاون في إبرازهما الألفاظ والتراكيب التي اشتملت عليه جملة الاستفهام ومتعلقاتها، وهما: تعظيم شأن البعث وتفخيم قدره، واستنكار موقف المشركين منه، وتهديدهم على ذلك.

ثالثاً: كان للألفاظ الموحية أثرها في كشف المعاني وإبراز المقصود مثل كلمات (النبأ - العظيم - مختلفون - كلا - ثم) .

رابعاً: التعبير بـ (ما) الاستفهامية كشف عن عظم شأن المسئول عنه وفخامة قدره مما يستوجب الاعتناء به .

خامساً: كان لأسلوب البيان بعد الإبهام في قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أثره في تقوية المقصود من أسلوب الاستفهام.

سادساً : تصاعد حدة الاستنكار والتبكيت للمشركين المنكرين للبعث حتى وصلت إلى التهديد والوعيد الشديد في قوله سبحانه : ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ .

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب ٣٠٢/٨ بتصرف.

(٢) وقيل: لا تكرار فيه وأن الأول عند خروج الروح وزجر الملائكة، والثاني في القيامة وزجر ملائكة العذاب، فـ"ثم" في محلها لما بينهما من البعد الزماني. [ينظر: السابق ٣٠٢/٨ بتصرف.] والأظهر ما أثبته.

سابعاً: جاء حذف المفعول به في قوله (سيعلمون) ليبقى التهديد مبهماً وملفوفاً وهذا أبلغ وأعمق في التخويف.

ثامناً: أن تعدد القراءات في الآية مما يعين على تفهم جوانب المعنى ويسهم في اكتمال صورته، ويؤدى إلى فيوض المعاني التى تعين العباد على القيام في رياض الطاعة، بما تفتحه أمامهم من سبل التقرب إلى الله تعالى.

المبحث الثالث

بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة الغاشية[(١)]

استفتح الحق جل وعز سورة الغاشية بهذا الخطاب لنبيه محمد ﷺ ولكل من يسمع القرآن من بعده: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، وبعد هذا الافتتاح تطوف السورة بالقلب البشرى في مجالين هائلين أحدهما: مجال الآخرة وعالمها الواسع ومشاهدها المؤثرة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۞ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۞ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۞ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۞ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۞ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۞ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۞ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۞ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۞ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۞ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۞ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۞ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٢ – ١٦].

والآخر: مجال الوجود العريض المكشوف للنظر والاعتبار: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ – ٢٠].

ثم تذكر النبى ﷺ بحدود واجبه وطبيعة وظيفته وبلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۞ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۞ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۞ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ۞ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

كل ذلك في أسلوب عميق الإيقاع هادئ ولكنه نافذ، رصين ولكنه رهيب[(٢)].

---

(١) سورة الغاشية مكية نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف وآياتها ست وعشرون آية، سميت في المصاحف والتفاسير سورة الغاشية لوقوع لفظ الغاشية في أولها.
وجاء في موطأ مالك تسميتها "هل أتاك حديث الغاشية" حيث روى أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية [موطأ الإمام مالك، باب القراءة في صلاة الجمعة، ص٨٤، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م].

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٨٩٦.

مقصود "سورة الغاشية":

ومقصود هذه السورة هو شرح ما في آخر سورة الأعلى من تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث بإثبات الدار الآخرة التي (الغاشية) مبدؤها، وذكر ما فيها للأتقى والأشقى بتفصيل أمر الثواب والعقاب في يوم القيامة والدلالة على القدرة عليها، وأدل ما فيها على ذلك المقصود (الغاشية) (١).

فإثبات أمر المعاد والآخرة وتفصيل ما فيها من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين، والدلالة على قدرة الخالق سبحانه عليها هو محور معاني السورة الكلية والجزئية، والمقصد الذى ترومه ألفاظها وتراكيبها وصورها وظلالها وجرسها وإيقاعاتها.

علاقة فاتحة "سورة الغاشية" بخاتمة سورة الأعلى:

حث البيان القرآني في خاتمة سورة الأعلى على تطهير النفوس عن الدنيا وشهواتها، وتزكيتها بالصلاة والذكر، ورغب في ذلك ببيان خيرية الآخرة وبالاقتداء بأولي العزم من الرسل، يقول عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٩].

فقد اشتمل آخر سورة الأعلى – كما نرى – على الترغيب في الإقبال على الآخرة والإعراض عن وضر الدنيا وشهواتها وذلك بتطهير النفوس وتزكيتها ودعم هذا الترغيب بأنه ثابت في صحف السابقين من الرسل عليهم السلام.

أما فاتحة "سورة الغاشية" فقد اشتملت على الترهيب من الإعراض عما رغبهم فيه في خاتمة "سورة الأعلى"، ومن التزكي بغير منهاج الرسل (٢) عليهم السلام يدل على ذلك:

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٤٠٤، والنظم الفني في القرآن ص ٣٤٨

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٤٠٤.

– التعبير بكلمة (الغاشية) وهي من أسماء القيامة حيث تغشى الناس بأهوالها وشدائدها.

– والتعبير بكلمة (حديث) ومعناها: ذكر يتجدد نزوله على المرسل به في كل وقت تدعو إليه الحاجة(١)، وبذا تتطهر النفوس وتقبل على الآخرة.

ولعل في ختم تلك بذكر صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وافتتاح هذه بخطاب سيدنا محمد ﷺ إشارة بالغة إلى اتحاد دعوة الرسل، ووجوب تطهير النفوس والإقبال على الآخرة باتباع منهاجهم عليهم السلام، ونبذ غيره من المناهج الفاسدة.

معاني الاستفهام في فاتحة "سورة الغاشية":

تبدأ "سورة الغاشية" بهذا الاستفهام الموحي بالعظمة، الدال على التقرير، الذي يشير في الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير، وتسمى القيامة هذا الاسم الجديد (الغاشية) أي: الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها(٢) وفظائعها، وشدائدها.

حيث يقول عز من قائل:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾

وهذا خطاب تذكير وتقرير لرسول الله ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ يحس وقع توجيهه إلى شخصه، حينما سمع هذه السورة .. فقد "مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فقام يستمع ويقول نعم قد جاءني"(٣).

والخطاب – مع ذلك – عام لكل من يسمع هذا القرآن، فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر، يذكر به وينذر ويبشر، ويستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس، كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع، ومن ثم يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل(٤).

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٢٩٢/٨.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٣٨٩٦/٦.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٣٨٩٦/٦.

وإنما كان الخطاب مباشرة لأشرف خلق الله تعالى: "لأن ذلك أعظم في تقدير أتباعه وأقعد في تحريك النفوس إلى تلقي الخبر بالقبول"(١).

وقد جاء التعبير بأسلوب الاستفهام هنا مثيراً للأذهان، ومحركاً للمشاعر، فتتلقى نفوس السامعين هذا الخبر بذهن صافٍ، وقلبٍ واعٍ، مما يجعل المعاني تستمكن وتستقر في النفوس الواعية.

ومن المعاني التي أفادها أسلوب الاستفهام هنا أيضاً:

-التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة(٢).

-والتهويل والتفخيم من أمر القيامة، حيث عبر عنها بـ(الغاشية) المضافة إلى كلمة (حديث)، وسلط الاستفهام عليها، مما جعل التركيب ينبئ عن انبهامها وعمومها، وقد "زاد في التهويل بما ذكر من أحوالها في تفصيل الناس إلى شقي وسعيد، وبدأ بالشقي، لأن المقام لإنذار المؤثرين للحياة الدنيا، وسوغ الابتداء بالنكرة التفصيل"(٣).

فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

-وتعديد النعمة – حكاه أبو حيان عن بعضهم – والمعنى: هل كان هذا من علمك لولا ما علمناك، وفي هذا تعديد النعمة(٤)، وامتنان الخالق سبحانه على نبيه ﷺ، ثم على أمته من بعده.

وفي كلام الفخر الرازي(٥) عن سر التعبير بقوله "هل أتاك" ما يشير إلى شيء من هذا، حينما ذكر عجز العقل عن معرفة تفاصيل القيامة، فلما عرف الله نبيه تفصيل أحوالها، ذكره بذلك، وبين له عظيم نعمته عليه وعلى أمته. فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾.

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٤٠٤.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٢٩٤.
(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٤٠٥.
(٤) البحر المحيط ١٠/٤٦١.
(٥) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٣١/١٥١.

البناء التركيبي لجملة الاستفهام:

جاء البناء التركيبي لجملة الاستفهام في صدر "سورة الغاشية" هكذا:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾

وهو يتكون من: هل + الفعل الماضي (أتى) + المفعول به (كاف الخطاب) + الفاعل (حديث) وما أضيف إليه (الغاشية).

وقد دخلت "هل" هنا على الجملة الفعلية للسؤال عن مضمونها، ولإفادة تحقق ما بعدها من الخبر وتقريره، وذلك في إشارة إلى أهمية هذا الخبر، "بحيث شأنه أن يكون قد بلغ السامع"(١).

ومقتضى الاستفهام بـ(هل) أن يدخل على الخبر للسؤال عن مضمونه(٢)، فإن دخل على إنشاء يؤول الإنشاء بالخبر، فقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٢].

يؤول الخبر فيكون المعنى: فهل يتوقع منكم الإفساد وتقطيع الأرحام إن توليتم.

ومدخول "هل" هنا الفعل الماضي المضاف إلى كاف الخطاب: "أتاك" أي: جاءك هذا الحديث من عندنا وبأمرنا، وانكشف لك بوضوح خبر الغاشية، والإتيان: مجيء فيه سهولة ولطف كما سبق ذكره – فهو أخص من المجيء.

والتعبير به هنا ينبئ عن كيفية تذكير النبي ﷺ بأمر الآخرة وأنه تذكير متجدد لأعظم خلق الله ولأمته من بعده وبذا تتطهر النفوس وتستجاش الضمائر.

واقتران الفعل بكاف الخطاب فيه تشريف وتكريم للنبي ﷺ وفيه أيضاً تحريك لنفوس أتباعه المحبين له إلى تلقي الخبر بالقبول.

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٢٩٤.
(٢) الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب ص ٢٣٨، تحقيق موسى بناي علي.

وكلمة "حديث" (١) تومئ إلى أن خبر الآخرة هو حديث هذا القرآن المتكرر بقصد التذكير والإنذار والتبشير، وبقصد استجاشة الضمائر لخشية الله وتقواه .

وإضافة (الغاشية) إليه فيها من التشويق والتهويل ما لا يخفى .

والغاشية : كل ما يغطي الشيء(٢) تغطية متمكنة، وهي صفة أريد بها حادثة القيامة سميت غاشية على وجه الاستعارة لأنها إذا حصلت لم يجد الناس مفرا من أهوالها فكأنها غاش يغشى على عقولهم ويتمكن منهم، فالجامع بينهما الاستيلاء والتمكن.

والتعبير بهذه الاستعارة إبلاغ في وصف هول القيامة التي تغشى الناس بدواهيها وشدائدها العظمى وزواجرها ونواهيها (٣).

وقد تكرر هذا التركيب "هل أتاك" في البيان القرآني في ست مواضع :(٤)

-الموضع الأول : في سورة طه ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه:٩].

-الموضع الثاني: في سورة ص ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١].

-الموضع الثالث : في سورة الذاريات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤].

-الموضع الرابع : في سورة النازعات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [النازعات:١٥].

-الموضع الخامس : في سورة البروج ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج:١٧].

-الموضع السادس: في سورة الغاشية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

وجميع هذه المواضع خطاب لرسول الله ﷺ وصيغة الاستفهام فيها واحدة "هل أتاك"، أما معانيه فمتنوعة تبعاً للسياق الوارد فيه الاستفهام وقرائن الكلام اللفظية والمعنوية .

(١) كلمة حديث معناها: ذكر يتجدد نزوله على المرسل به في كل وقت تدعو إليه الحاجة. [نظم الدرر ٨/٢٩٢].
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٦٠.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٨/٤٠٤.
(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/٨، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

فالمقصود من الاستفهام في آية "طه" : تقرير الجواب في قلب النبي ﷺ ليقوى في الإبلاغ ويصبر على تحمل المكاره، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك لما فيها من التشويق الذي يجعل السامع متطلعاً إلى معرفة ما يرمى إليه الاستفهام (١).

والمراد من الاستفهام في آية "ص" : التعجيب والتشويق أيضاً لأنه يرمي إلى الدلالة على أن هذا النبأ من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه (٢).

ويقصد من الاستفهام في آية "الذاريات" تفخيم الحديث وتعظيمه والتنبيه على أنه ليس من علم النبي ﷺ وإنما عرفه بالوحي(٣)، وفيه أيضاً تعجيب وتشويق .

ومعنى الاستفهام في آية "النازعات" تذكير النبي ﷺ بقصة أخيه موسى مع فرعون وذلك بقصد تسليته وتصبيره، وتهديد المكذبين له بإنذارهم بعذاب كعذاب من كذب الرسل قبلهم (٤) .

والاستفهام في آية "البروج" مستعمل في الاستدلال على شدة بطش الله عز وجل بالمكذبين المعاندين للرسل، وذلك بقصد تهديد قومه وتخويفهم من هول بطش الله بالمكذبين على مر العصور، وفي ذلك تسلية وتصبير للنبي ﷺ على تحمل الشدائد والأذى من المشركين .

وبذا يتبين لنا أن صيغة الاستفهام تكتسب معناها من سياقها وقرائن الكلام والقيود المتعلقة بجملة الاستفهام .

ونستطيع أن نخلص مما سبق بالآتي :

أولاً : شدة ترابط المعاني وتكاملها وتناسلها بين آيات وسور القرآن الكريم .

ثانياً : أن إثبات أمر المعاد والبعث، والاستدلال على قدرة الله تعالى على ذلك يمثلان

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ١٠/٥٣٨.
(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٣/٣٦٦، ٣٦٧.
(٣) السابق نفسه ٤/١٧.
(٤) ينظر: حاشية الشهاب ٨/٣١٥.

محور معانى السور الثلاث المتقدم ذكرها، والمقصود الذى تعبر عنه ألفاظها وتراكيبها وسورها وظلالها وجرسها وإيقاعها.

ثالثاً: أن ثراء المعانى التى أفادها أسلوب الاستفهام في صدر هذه السور بمعونة السياق والقرائن والقيود، يقوى القول بأن إفادته لهذه المعانى من قبيل مستتبعات التراكيب.

رابعاً: دخلت "هل" على الخبر الفعلى لتحقيق مضمونه وتقريره، مع إفادتها لمعان أخرى.

خامساً: من الكلمات الموحية التى أسهمت في الكشف عن معانى الاستفهام في صدر "سورة الغاشية" كلمة "حديث" وكلمة "الغاشية".

سادساً: صورت الاستعارة في كلمة "الغاشية" شدة هول القيامة أبلغ تصوير.

سابعاً: تنوع معانى صيغة الاستفهام الواحدة تبعاً لتنوع سياقها وقرائنها وهذا يؤكد أن الصيغة تكتسب معناها من سياقها الذى ترد فيه وما يصاحبها من قرائن وقيود.

الفصل الثالث

بلاغة الاستفهام في فواتح سور "الشرح والفيل والماعون"

تمهيد:

تلتقى هذه السور في التذكير بنعم المولى تعالى جده على نبيه محمد ﷺ وعلى أمته، وفى الحض على شكر المنعم سبحانه على ما أنعم به، وتشترك مطالعها في الافتتاح بأداة الاستفهام الهمزة، وفي خطاب النبي ﷺ بهذا الافتتاح تشريفاً له وتسلية لنفسه وقلبه.

حول أداة الاستفهام "الهمزة":

الهمزة هي أم الباب وأصل أدوات الاستفهام وذلك لأنها عريقة فيه وضعا بخلاف غيرها من أدوات الاستفهام الأخرى، فالاستفهام طارئ عليها وتفيده بالتضمن، كما أن الهمزة أبسط الأدوات وأخفها في الاستعمال[١].

ولذلك اختصت الهمزة بأحكام لفظية ومعنوية منها:

١- أنها تكون لطلب التصور والتصديق[٢]، مثال التصور قولك: أقام زيد أم قعد؟ فأنت تردد الاستفهام بين القيام والقعود وتطلب تعين أحدهما لزيد.

وقولك: أمحمد قام أم زيد؟ أنت تطلب تعين القائم منهما.

ومثال التصديق قولك: أقام زيد؟ فأنت هنا تسأل عن وقوع النسبة بين القيام وزيد، بعد أن تصورت القيام وتصورت زيداً فأنت تردد في تحقق نسبة القيام له وعدم تحققها.

٢- جواز حذفها وبقاء معناها: كقول عمر بن أبي ربيعة:

فَواللهِ ما أدْرِي وإنِّي لحاسبٌ ... بسبعٍ رميتُ الجمرَ أمْ بثمانِ[٣]

والتقدير: أبسبع[٤]

(١) حاشية الشيخ الأمير على مغنى اللبيب ١١/١.

(٢) ينظر: مغنى اللبيب لابن هشام ١١/١- ١٥، وقد ذكر في الحكم الرابع تفصيلاً عن العلماء يضيق المقام عن ذكره.

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٣٩٩، ط.دار صادر، بيروت.

(٤) مغنى اللبيب لابن هشام ١١/١- ١٥.

٣- أنها تدخل على الإثبات كما تقدم وعلى النفى نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨].

٤- تمام تصديرها، فلا يتقدمها شيء من حروف العطف بل تأتى كل حروف العطف تالية لها[1]، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة:٧٥].

٥- دخولها على الشرط تقول: أإن تخرج أخرج معك؟ ولا تقول: هل إن تخرج أخرج معك؟[2] ومنه قول كثير عزة:

أإن زُمَّ أجمالٌ وفارقَ جيرةٌ ... وصاحَ غُرابُ البَيْنِ أنتَ حزينُ[3]

٦- أن يليها المستفهم عنه حين تكون للتصور[4] تقول: أقام محمد أم قعد؟ أمحمد قام أم على؟ أفى البيت خالد أم في العمل؟ أيوم الجمعة ألقاك أم يوم الخميس؟

ذلك هو القويم بلاغة، فإذا أجاز النحاة مثل: أعندك زيد أم عمرو؟ فهو لا يعدو درج الصحة والصواب، ولا اعتداد لدى البلاغيين بمقامات الصحة والصواب، لأن الذوق المتأدب ـ أحيانا ـ لا يقف عند القاعدة النحوية، بل يطلب ما هو أعلى بيانا، ليكون الكلام صورة تعكس المعانى وتكشف عن خصائصها.

٧- أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس في النفس إثبات ما يستفهم عنه بخلاف "هل" فإنها لا ترجح عند الاستفهام بها بنفى ولا إثبات على ما حكاه أبو حيان[5].

غير أن ما حكاه أبو حيان عن "هل" غير دقيق، فالاستفهام بها قد يكون حين يكون الإحساس بالنفى أقوى، فهى إلى النفى أميل وكثيراً ما يكون معها "من" الخاصة

(١) السابق نفسه.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٤٩/٢، ط. المكتبة العصرية، بيروت.

(٣) ديوان كثير عزة ص ٣٥٨، تحقيق: قدرى مايو، ط.الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

(٤) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢٥٣/٢.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٤٨/٢.

بالسلب[1]، أو يكون معها "إلا" مما يدل على أنها معها للنفى، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ولعل اختصاص "هل" من بين أدوات الاستفهام بإشرابها معنى التمنى الذى هو إلى المحال وغير الممكن أقرب، يؤيد ذلك[2].

وبعد هذه النبذة المختصرة عن أحكام الهمزة وخصائصها نخلص إلى التحليل البلاغى لأسلوب الاستفهام في فواتح سور "الشرح والفيل والماعون".

(١) ينظر: التطور النحوى للغة العربية ص ١٠٩، برجشتراس، تصحيح د/رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجى بالقاهرة..

(٢) ينظر: التذكرة في معانى النحو د:محمود توفيق ص ٢٧ "كتاب دراسي".

المبحث الأول

بلاغة الاستفهام في فاتحة "سورة الشرح"[1]:

تبدأ "سورة الشرح" بهذا الحديث الودود من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤]

وهي بداية توحي بأن هناك ضائقة كانت في صدر الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كلفها، ومن العقبات الوعرة في طريقها، ومن الكيد والمكر المضروب حولها، ومن ثم كان هذا التثبيت والإيناس ومن ثم كانت هذه المناجاة، وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية والعناية الإلهية بمحمد ﷺ، مما هو امتداد لما جاء في سورة الضحى وكأنها تكملة لها[2].

وهذا يؤكد تكامل المعاني وتناسلها بين سور القرآن الكريم.

مقصود السورة:

فمقصود "سورة الشرح" تثبيت النبي ﷺ وإيناسه[3] وذلك باستحضار واستعراض مظاهر العناية ومواقع الرعاية، وتذكيره بآلاء ربه عنده وإحسانه إليه حضاً له على شكره على ما أنعم عليه[4].

ومن ثم كانت هذه السورة تفصيلاً لما في آخر الضحى من النعمة، وبياناً للمراد من التحديث بها، وهو شكرها بالنصب في عبادة الله والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته بوصف الربوبية وامتنانه وعلى ذلك دل اسمها "الشرح"[5].

(١) سورة الشرح: مكية نزلت بعد سورة الضحى وقبل سورة العصر، وتسمى سورة "ألم نشرح" وسورة "الشرح" و سورة "الانشراح" وكلها ترجع لمعنى واحد.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٩.

(٣) ينظر: النظم الفني في القرآن ص ٣٥٤.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري ٣٠/٢٩٥.

(٥) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي ٣/٢٠٧، تحقيق د: عبد السميع محمد أحمد، ط مكتبة المعارف بالرياض، ط الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

علاقة فاتحة "سورة الشرح" بخاتمة سورة الضحى:

تبدو فاتحة هذه السورة شديدة الاعتلاق بخاتمة "سورة الضحى" وذلك من وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فيه أمر بالتحديث بالنعمة وهي عامة في جميع النعم[1] التي انعم بها ربه عليه، فما ذكر في سورة الضحى ذكر في سورة الشرح، وغير ذلك، وبذا تكون "سورة الشرح" من تفصيلات تلك النعمة.

الثاني: ما ذكره بعض العلماء من أن "سورة الشرح" كأنها تكملة لسورة الضحى[2]، يدعم ذلك، نزولها بعدها، وذكرها بعدها كذلك في ترتيب المصحف، وهذا يشي بشدة الارتباط بينهما.

وهذا لا يعني أنهما سورة واحدة كما روى عن بعض العلماء[3]، ولكنه تكامل في المعاني بين سور القرآن الكريم يبدو واضحاً أشد الوضوح بين هاتين السورتين.

الثالث: أن مضمون هذه السورة شبيه بأن يكون حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماضٍ يعلمه النبي ﷺ[4] ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الآيات.

(١) ينظر: البحر المحيط ١٠/٤٩٨.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٩

(٣) يقول الفخر الرازي: يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان: هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، والذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ كالعطف على قوله: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾، وليس كذلك، لأن الأول كان نزوله حال اغتمام النبي ﷺ من إيذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر، والثاني: يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب، فأنى يجتمعان؟" [تفسير الفخر الرازي ٣٢/٣].

(٤) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٤٠٧.

وغنى عن البيان أن إعراض المشركين وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وأصحابه كان يتكرر باستمرار، وأن رسول الله ﷺ كان يغتم لذلك ويحزن ألا يكونوا مؤمنين قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، وبذا يتبين لنا إمكان تجدد حال المحنة والحزن في صدر النبى ﷺ.

معانى الاستفهام في فاتحة "سورة الشرح":

يستهل البيان القرآنى في "سورة الشرح" بهذا الاستفهام الموحى بظل العطف والندى، الملفت إلى مظهر العظمة الإلهية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

وهو استفهام عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه على ابلغ وجه، لأن الإثبات بإبطال كالدعوى ببينة، لأن إنكار النفى مستلزم للإثبات بوجه أقوى فكأنه قال: شرحنا لك صدرك[١].

فهذا اللون من الاستفهام يفيد الإنكار والتقرير معاً إنكار النفى عند من ينكر إثبات المنفى، والتقرير على إثبات المنفى (الشرح) وهذا إبلاغ في الإثبات أو إثبات على سبيل المبالغة.

وقد ذكر ابن جنى – رحمه الله – أن همزة التقرير إذا دخلت على المنفى نفته، ونفى النفى عائد به إلى الإثبات[٢].

والتقرير هنا وإن كان ظاهر معناه حمل المخاطب على الإقرار بتحقق وقوع مضمون الخبر وهو حصول الشرح، إلا أن المقصود من هذا التقرير الامتنان والتذكير والحض على شكر المنعم سبحانه، بدليل ختم السورة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، فهذا توجيه كريم لمواقع التيسير وأسباب الانشراح، وبهذا يلتئم مطلع السورة مع خاتمتها.

(١) ينظر: الكشاف للزمخشرى ٢٦٦/٤، وحاشية الشهاب ٣٧٤/٨.

(٢) ينظر: الخصائص لابن جنى ٤٦٤/٢، ط.الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

ومآل كل تلك المعانى يرجع إلى تثبيت النبى ﷺ وإيناسه حتى يقوى على تحمل الشدائد، ويتجاوز العقبات التى تعترضه في دعوته، وهذا هو مقصود السورة كما علمنا.

وبذا تبرز لنا قيمة التعبير بأسلوب الاستفهام في صدر هذه السورة، حيث حرك المشاعر وأثار الأذهان لتدرك مدى عظمة الخالق سبحانه، ومدى عطفه وتأييده لنبيه محمد ﷺ.

البناء التركيبي لجملة الاستفهام:

يتكون البناء التركيبي لجملة الاستفهام في صدر "سورة الشرح" من:

همزة الاستفهام + لم + الفعل المضارع (نشرح)+ الجار والمجرور المقدم (لك)+المفعول به.

والهمزة في مثل هذا التركيب للتصديق بمضمون الجملة، وهي تفيد التقرير والإنكار معاً.

يقول ابن هشام: "إن (لم) حرف جزم لنفى المضارع وقلبه ماضياً "[١].

وجاء في رصف المبانى للمالقى[٢] أن " الهمزة اللاحقة لها تصير الكلام تقريراً "[٣].

وجاء في شرح كافية ابن الحاجب للاستراباذى أنه "إذا دخلت الهمزة على النافى فلمحض التقرير أى حمل المخاطب على الإقرار بأمر يعرفه وهو في الحقيقة للإنكار، وإنكار النفى إثبات"[٤].

(١) مغنى اللبيب ٢٧٧/١.

(٢) هو أحمد بن عبد النور بن راشد المالقى، ولد في عام ٦٣٠هـ في بيت مشهور في مدينة مالقة، وتوفى بالمرية عام ٧٠٢هـ من أشهر مؤلفاته رصف المبانى في حروف المعانى [ينظر: مقدمة تحقيق كتاب رصف المبانى لأحمد محمد الخراط، ص ى، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م].

(٣) رصف المبانى في شرح حروف المعانى للمالقى ص٢٨٠، تحقيق: أحمد محمد الخراط.

(٤) شرح كافية ابن الحاجب للاستراباذى ٣٨٨/٢، ط.دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

والتقرير المتولد عن الاستفهام المنفي بـ(لم) يحمل طلب الإقرار وترك هذا الطلب في آن واحد، بمعنى أن منشئ الجملة الاستفهامية في ذلك يطالب أمراً من خلال استفهامه ولكن هذا الأمر الذي يبدو مطلوباً - لأنه جاء في أسلوب استفهامي - يوحي بأن هناك إقراراً لما تتضمنه الجملة[١].

وهذا ما جعل العلماء يقولون بأن معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ كأنه قال: شرحنا لك صدرك فمآل المعنى هو الخبر، وذلك لأن الاستفهام في هذه السورة أصبح يشكل معنى يحمل شكلاً قريباً من الخبر.

والمخاطب بالاستفهام هنا النبي ﷺ وهو لا ينكر الشرح أو ينفيه بل يقره ويحيا به وفيه ومن ثم رأينا أهل العلم يؤولون معنى الاستفهام هنا على أنه تقرير بما بعد حرف النفي من جملة "نشرح لك صدرك" ومعناها (شرحنا لك صدرك، لأن لم تجزم الفعل المضارع وتقلبه ماضياً - كما تقدم - .

وحيث كان مآل المعنى هنا إلى الخبر، صح عطف الخبر عليه في قوله تعالى:

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢].

قال المبرد: "هذا محمول على معنى: "ألم نشرح" لا على لفظه"[٢].

---

(١) ينظر: أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي د.حسني عبد الجليل يوسف ص ٨٦، ط.دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢) ينظر: الكامل للمبرد، ٢٧٧/١، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ط.مؤسسة الرسالة، وينظر: تفسير الفخر الرازي ٥/٣٢.

فالتلاقي في مآل المعنى محقق صحة عطف الخبر على الإنشاء، كما أن ما بين الخبر والإنشاء من فارقات لا يقتضى ترك العطف، ولا يتعاند مع دلالة العطف الوظيفية، سواء في بناء الجمل الممتدة التي قد تبلغ مدى نظمياً مبسوطاً أو في بناء السور الكلية المشكلة النسيج اللغوي للنص[١].

والتعبير بالفعل المضارع (نشرح) فيه تعظيم لهذا الشرح، لأن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها[٢] وهذا هو مفاد التعبير بنون العظمة.

وأصل الشرح: بسط اللحم ونحوه يقال: شرحت اللحم وشرّحته، ومنه شرح الصدر، أي بسطه بنور الهي وسكينة من جهة الله وروح منه. وشرح المشكل من الكلام بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه[٣].

واستعمال الشرح والسعة في القلب من المجاز الاستعاري الشائع الذي يساوي الحقيقة، وذلك لأن القلب محل الإدراك لما يسر وضده، فجعل إدراكه لما فيه مسرة

---

(١) القول بعطف الخبر على الإنشاء أو العكس محل خلاف بين العلماء ومجمل القول في ذلك أن البلاغيين وجمهور النحاة والمفسرين ذهبوا إلى منع ذلك وأقاموا له ضوابط عدة يمكن إيجازها في الآتي:

١- ألا يكون ثم جامع بينهما.

٢- ألا يكون للأولى المعطوف عليها محل إعرابي أو قيد دلالي يراد إشراك المعطوف له فيه.

٣- ألا يكون العطف لغير الإشراك في القصد الإعلامي.

٤- ألا يكون الناسق فاء السببية.

٥- أن يكون الاختلاف في مضمون الجملتين ومعنييهما، فإن اتفقا معنى فلا ضير من العطف، وإن اختلفت صورة المعنى اللفظية فيعطف إنشاء في معنى الخبر على خبر صرف، ويعطف خبر في معنى الإنشاء على إنشاء صرف، فالتلاقي في مآل المعنى محقق صحة العطف عند المانعين، وقد أولوا ما جاء من العطف بين الخبر والإنشاء، وسلكوا في ذلك مسالك عدة يضيق المقام عن ذكرها [ينظر: مسالك العطف بين الخبر والإنشاء للدكتور/ محمود توفيق سعد ١٠-١١، ١٣-٤٩، ط.أولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م، مطبعة الأمانة].

(٢) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٤/٣٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٨.

يزيل ما يحزنه شرحاً وتوسيعاً، وذلك لأنه بالهام ونحوه مما ينفس كربه ويزيل همه بظهور ما كان غائبا عنه وخفياً عليه مما فيه مسرته، كما يقال شرح الكتاب إذا وضحه، ثم استعمل في الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه، لأن اتساع الشيء يتبعه اتساع ظرفه وهو من المجاز المتفرع على الكناية بوسايط، وبعد الشيوع زال الخفاء وارتفعت الوسايط .

والمعنى : ألم توسعه بالقاء ما يسره ويقويه وإظهار ما خفى عليه من الحكم والأحكام وتأييده وعصمته حتى علم ما لم يعلم وعرف الله معرفة من يراه قبل كل شيء فيناجيه ويدعو عبيده لما يرتضيه [1].

وتقديم نعمة الشرح على ما بعدها لعلو قدرها، حيث إن في صلاح القلب والصدر صلاح الجسد والنيات والأعمال، فما بالك ببسطه بالنور الإلهى ؟

ولتكون البشارة بالإكرام أولاً كما ذكر البقاعى [2] والتقديم هنا ليس على نية التأخر، بل هو تقديم في الذكر .

وتقديم الجار والمجرور (لك) لإفادة التشريف والتكريم للنبى ﷺ ، لأن ربه فعل ذلك من أجله خاصة، فاللام فيه للتعليل .

وبالتأمل نستطيع أن ندرك أن المعنى مستقل بدون الجار والمجرور (لك) فما السر في ذكره هنا ؟

يقول الإمام الزمخشرى في زيادة (لك) ما في طريقة الإبهام والإيضاح ، كأنه قيل : ألم نشرح لك، ففهم أن ثم مشروحاً، ثم قيل صدرك فأوضح ما علم مبهماً، وكذلك قوله (لك ذكر) و(عنك وزرك) [3]. وهذا من شأنه أن يزيد من تطلع النفس وتشوقها إليه فإذا عرفته عظم شأنه عندها .

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى ٣٧٣/٨.

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعى ٤٦٠/٨.

(٣) الكشاف للزمخشرى ٢٦٦/٤، ٢٦٧.

وبهذا يكون البيان بعد الإبهام أعظم في التنويه به وأجل في التعريف بأمره وتلك هي القيمة البلاغية والأسلوبية لأسلوب البيان بعد الإبهام.

ويمكن أن نخلص مما سبق بالآتى :

أولاً : تكامل المعانى وترابطها بين الآيات والسور يبدو واضحاً بين سورتى الضحى والشرح أشد الوضوح .

ثانياً : مآل معانى الاستفهام في صدر "سورة الشرح" يرجع إلى تثبيت النبى ﷺ وإيناسه وهذا هو مقصود السورة، مما يؤكد ويكشف لنا عن سر تصدير هذه السورة بالاستفهام .

ثالثاً : التقرير المتولد عن الاستفهام المنفى بـ(ألم) يحمل طلب الإقرار وتركه في آن واحد، مما ينبئ أن الاستفهام في هذه السورة يحمل معنى الخبر، وإنما عبر عنه بالاستفهام ليحمل السامع على الإقرار به وتحقيقه.

رابعاً : التلاقى في مآل المعنى محقق صحة العطف بين الخبر والإنشاء، على الرغم مما بينهما من فارقات .

خامساً : كان لأسلوبى التقديم، والبيان بعد الإبهام أثرهما في الكشف عن مقصود جملة الاستفهام .

سادساً : شيوع الاستعارة مما يزيل خفاءها ويقربها من الحقيقة .

المبحث الثاني

بلاغة الاستفهام في فاتحة سورة "سورة الفيل"[1]:

تشير "سورة الفيل" إلى حادث وقع في الجزيرة العربية قبل بعثة النبى ﷺ بعام القاصى والدانى حيث طبقت شهرته الآفاق، وفي هذا الحادث "عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير، ومحضن العقيدة الجديدة"[2] ذلكم هو حادث تحطيم الله تعالى لجيش أبرهة الحبشى الذى جاء قاصداً به البيت الحرام، وتحطيم الكعبة، فرد الله كيده وجعله في تضليل، وأرسل عليهم جنداً من جنوده التى لا يعلمها إلا هو سبحانه، فجعلتهم كورق زرع أكل الدود وجوفه[3].

وقد ابتدأ الحق عز وجل "سورة الفيل" بقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ١-٢] وهذا خطاب لرسول الله ﷺ يذكر نعمته عليه إذ كان هذا الحادث عام مولده ﷺ وإرهاصاً بنبوته[4]، وفيه تعريض بالمشركين أن يفعل بهم مثل ما فعل بأصحاب الفيل.

مقصود "سورة الفيل":

يقصد من هذه السورة بيان قصة أصحاب الفيل من الحبشة مع قريش في مكة لتكون عظة لمن يغتر بماله وقوته من قريش[5].

---

(١) سورة الفيل مكية، وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير بهذا الاسم وآياتها خمس آيات، نزلت بعد سورة "قل يا أيها الكافرون" وقبل سورة "الفلق" وقيل قبل سورة قريش. [ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٥٤٣].

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٣٩٧٤.

(٣) يراجع في ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١- ٣٩، ط.دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٣٣- ١٣٨، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

(٤) ينظر: السابق نفسه.

(٥) ينظر: النظم الفنى في القرآن ص ٣٦٥.

وتذكيراً لهم بنعمته عليهم في حماية هذا البيت وصيانته، وهذا التذكير بهذا الحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة على المشركين والعجيب من موقفهم العنيد[1].

كما يقصد منها أيضاً الاستدلال على ما ورد في آخر (سورة الهمزة) من إهلاك المكاثرين بالأسباب في الدنيا فعند انقطاع الأسباب أولى لاختصاصه سبحانه وتعالى بتمام القدرة دون التمكن بالمال والرجال[2].

علاقة فاتحة "سورة الفيل" بخاتمة سورة الهمزة:

ختمت سورة الهمزة ببيان شدة العذاب الذى يلاقيه كل من هو سيء الخلق، شديد الحرص على جمع المال والافتخار به ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٤- ٩]، أما "سورة الفيل" فجاءت للاستدلال والاحتجاج على ماورد في آخر الهمزة من إهلاك المكاثرين المغترين بقوتهم وعنادهم، وذلك بالكشف عن هذا الحادث المشهور، والدليل الملموس على قدرة الله تعالى على تحطيم وإهلاك المكاثرين المتكبرين، وقال أبو حيان: "ولما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا"[3].

معانى الاستفهام في صدر "سورة الفيل":

جاء الاستفهام في صدر "سورة الفيل" معبراً عن معان كثيرة منها:

١- التقرير والتذكير من الله تعالى لنبيه ﷺ والمعنى: ألم تخبر عن فعل ربك بأصحاب الفيل من الحبشة[4]. فقد تواترت في هذا الحادث الأخبار وقامت مقام المشاهدة، وقد كان هذا إرهاصاً بنبوتك حيث كان عام مولدك فكان من نعم الله عليك.

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٣٩٧٩، ٣٩٨٠.

(٢) ينظر: مصاعد النظر ٣/٢٤٩.

(٣) البحر المحيط ١٠/٥٤٣.

(٤) ينظر: معانى القرآن للفراء ٣/٢٩١.

٢-التشريف والتكريم والإشادة بنبيه ﷺ حيث أقبل رب العزة سبحانه عليه بالخطاب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: معبودك الذي فعل ذلك لا أصنام قريش [١].

والخطاب بوصف الربوبية يتفاوت بحسب تفاوت المخاطبين من المخلص ومن هم دونهم، فلكل مخاطب حد في الفهم وحال، فخطاب الإقبال على النبي ﷺ أعظم إفهام في القرآن وكما يتضح لأهل التعرف رتب البيان بحسب إضافة اسم الرب، فكذلك يتحقق لأهل الفهم وجود إحاطات البيان بحسب النعوت والتبيان في اسم الله تعالى .. والتفطن في رتب البيان في موارد هذا النحو من الخطاب في القرآن من مفاتيح الفهم ويؤدي إلى مزيد العلم [٢].

٣-تذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم في حماية هذا البيت وصيانته التي عجزوا هم عنها، فما بالهم يغترون بقوتهم اليوم في مواجهة محمد ﷺ والقلة المؤمنة معه ؟! فالتذكير بهذا الحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة على المشركين والتعجب من موقفهم العنيد [٣].

٤-بيان تمام علم الله عز وجل وقدرته على إهلاك المغترين بقوتهم المكاثرين بأموالهم ورجالهم، واعتزاز نبيه بالإرهاص لنبوته، والتمكين لرسالته [٤].

٥-التعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله عليهم ، إذ لم يزالوا يعبدون غيره [٥] فليحذروا أن يحل عليهم عقابه ويفعل بهم كما فعل بأصحاب الفيل وفي ذلك من التهديد والتخويف ما فيه .

---

(١) ينظر: البحر المحيط ١٠/٥٤٤.

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٦/٩٤- ٩٥ نقلاً عن الإمام الحرالي.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٠.

(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٨/٥٢٩.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٥٤٥.

فالتعريض هنا يهدف إلى التعجيب من موقف المشركين العنيد وتخويفهم من عقاب الله تعالى .

وبذا يكون للتعريض أثره البالغ في تصوير المعنى والغرض المنسوب له الكلام وذلك لأنه إفهام للمعاني عن طريق السياق وقرائن الكلام، فهو من قبيل الإفادة لا الدلالة، ومن ثم لا يوصف بأنه حقيقة أو مجاز أو كناية، لأن هذه الأمور الثلاثة من قبيل الدلالة لدلالة ظاهر الكلام عليها حقيقة أو مجازاً أو كناية [١].

البناء التركيبي لجملتي الاستفهام في صدر "سورة الفيل":

صدرت "سورة الفيل" بجملتي استفهام:

الجملة الأولى : قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ويتكون بناؤها من :

همزة الاستفهام + لم + الفعل المنفي (تر) + المفعول (كيف فعل ربك)

وقد دخلت الهمزة هنا على الجملة الفعلية المنفية لتقرير ما بعد حرف النفي وإثباته ، وهي في مثل هذا التركيب للتصديق بمضمون الجملة بعدها.

والتقرير هنا يراد منه التكريم والتشريف للنبي ﷺ لما فيه من الإشارة إلى أن ذلك كان إرهاصاً بنبوته .

ومعلوم أن إثبات المنفي بهذه الصيغة أبلغ وآكد، لأن الإثبات بإبطال كالدعوى بينة مما ينبئ عن قوة الإثبات بهذا الوجه وذلك لأمرين :

الأول : أن همزة التقرير إذا دخلت على المنفي نفته ونفي النفي عائد به إلى الإثبات كما سبق أن بينا .

الثاني : قلب دلالة الفعل المضارع إلى الماضي بواسطة (لم) والماضي يدل على تحقق وقوع الفعل

---

(١) ينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٤/٢٦٥/٢٦٨.

والرؤية يجوز أن تكون مجازية مستعارة مستعملة للعلم البالغ من اليقين حد المرئي لتواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل بين أهل مكة[1] حتى أصبح الخبر كالمشاهدة. وهذا إبلاغ في تصوير العلم عن طريق الأخبار والسماع، وكشف شهرة هذا الحادث المستفيضة، التي لا تكاد تخفى على أحد في هذه البقعة من الجزيرة العربية.

وفعل الرؤية معلق بالاستفهام.

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية، والمعنى: أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة[2].

قالت عائشة: "لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس، أي: يسألان الناس الطعام"[3].

وقرئ (ترْ) بإسكان الراء وإظهار أثر الجازم، وكأن السر في هذه القراءة الإشارة إلى الحث في الإسراع بالرؤية إيماء إلى أن أمرهم على كثرتهم كان كلمح البصر، من لم يعتن به ويسارع إلى تعمده فلا يدركه حق إدراكه[4].

والمقصود من ذلك الحض على أخذ العبرة والموعظة من هذا الحادث.

و(كيف) هنا مجرد عن معنى الاستفهام، إذ يراد به مجرد الكيفية فمحله النصب على المفعول به.

وسر التعبير به دون (ما) مثلاً، لأن للناظر في الكيفية من التدقيق والوقوف على التحقيق في وجوه الدلالات على كمال علم الله وقدرته وإعزاز نبيه بالإرهاص لنبوته والتمكين لرسالته لتعظيم بلده وتشريف قومه ما ليس للناظر إلى مطلق الفعل، أي فعل من له أتم داعية إلى ذلك الفعل[5].

وفي ذلك إشارة إلى أن ما ندبه إلى رؤيته مما يستحق أن يسأل عنه.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٥٤٥.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٤/٢٨٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٧.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٨/٥٢٨.

(٥) نظم الدرر للبقاعي ٨/٥٢٩.

وفعل الرؤية معلق عن (كيف) لما فيه من معنى الاستفهام فلا يتقدم عامله عليه بل ناصبه فعل، وجملة الاستفهام في موضع نصب بالفعل المعلق.

وفي تخصيصه ﷺ بالخطاب والتعبير بالرب مع التشريف له والإشادة بذكره التعريض بحقارة الأصنام التي سموها أرباباً لهم[1].

والتعبير بـ (فعل ربك) دون غيره، لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالاً كثيرة لا يدل عليها غيره[2].

وقوله (أصحاب الفيل) كناية عن أبرهة وجيشه، والتعبير به يوحي بشدة تعلقهم وافتخارهم بأسباب القوة والتي يأتي "الفيل الضخم" في مقدمتها، ولكنها لم تدفع عنهم شيئا من بأس الله وتحطيمه لهم، وفي ذلك من التبكيت والتهكم منهم ومن قوتهم ما فيه.

الجملة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

وهذه الجملة وما بعدها بيان وتفصيل لما في الجملة الأولى من الإبهام والإجمال والقصد من ذلك تمكين الخبر في النفوس بياناً بعد تمكينه عياناً، وهذا هو سر الفصل بين الجملتين، وتتكون من:

همزة الاستفهام + (لم) + الفعل المنفي (يجعل) + المفعول به (كيدهم)+ الجار والمجرور (في تضليل).

والمقصود من الاستفهام بالهمزة هنا تقرير خيبة أملهم وتضليل كيدهم بمعنى إبطاله وتضييعه.

والمقصود من التقرير بهذه الصيغة إثبات المنفي على أبلغ وجه وأتمه كما سبق.

و(الكيد) هنا كناية عن حربهم لأهل مكة بقصد هدم الكعبة، وإنما عبر به لأن فعلتهم التي قصدوها كانت بطريق الكيد والاحتيال على إلحاق الضر بأهل مكة، بهدم

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٨/٥٢٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٥٤٥.

الكعبة وصرف الناس عنها إلى كنيستهم التى بنوها بغية إبطال الحج إلى الكعبة، وصرف العرب إلى صنعاء.

فالكيد أبلغ تعبير يصف حقيقة أمرهم، وعظم كيدهم الذى غلبوا به من ناوأهم من العرب.

والتضليل: من ضلّل غيره إذا جعله ضالاً، وضلال الطريق عدم وصول السائر إلى المكان الذى يقصده، والضلال: العدو عن الطريق المستقيم[١].

ومن هنا استعمل التضليل في الإبطال وعدم نوال المقصود على سبيل الاستعارة والجامع تضيع القصد والبغية في كل.

والتعبير بهذه الاستعارة يبرز قوة تحطيم الله لمكائدهم وحيلهم، وذلك بتضييع مقصودهم وإبطاله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، يؤكد ذلك دخول حرف الظرفية (فى) عليه.

وظرفية الكيد في التضليل ليست حقيقية بل هي مجازية، استعير حرف الظرفية ليعبر عن معنى المصاحبة الشديدة، أى: أبطل كيدهم بتضليل، أى: مصاحب للتضليل لا يفارقه.

والمعنى: أنه أبطله إبطالاً شديداً، إذ لم ينتفعوا بقوتهم مع ضعف أهل مكة وقلة عددهم [٢].

فالمراد بتضليل كيدهم: جميع ما حل بهم من أسباب الخيبة وسوء المنقلب، فهو من إيجاز القصر المعبر عن المعانى الكثيرة في ألفاظ قليلة.

ونستطيع أن ندرك مما سبق أثر الاستفهام ومتعلقاته في تشكيل المعانى وإبرازها من خلال ما يأتى:

أولاً: تأكيد تكامل معانى القرآن الكريم وترابطها من خلال الكشف عن مقصود "سورة الفيل" وهو الاستدلال على ما جاء في آخر "سورة الهمزة".

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢٩٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/٥٤٨ – ٥٤٩.

ثانياً: تنوع المعانى التى عبر عنها الاستفهام في صدر "سورة الفيل"، وأثر البناء التركيبي لجملة الاستفهام في إبرازها وتقريرها.

ثالثاً: أسهمت أساليب البيان بعد الإبهام، والتعريض والإيجاز في الكشف عن مقصود جملة الاستفهام، وتأكيد ما حوته من معانٍ متنوعة.

رابعاً: والاستعارة – كذلك – كان لها أثرها البالغ في تصوير المعانى، والكشف عن مرامى الألفاظ ودلائل التراكيب.

خامساً: تعدد القراءات في الآية كان له أثر في فهم جوانب المعنى، واكتمال صورته.

سادساً: أسهمت الألفاظ الموحية في تدعيم المعانى وتقريرها، وهي ألفاظ جملة الاستفهام (تر – كيف – فعل – ربك – أصحاب الفيل – كيدهم – تضليل).

المبحث الثالث

بلاغة الاستفهام في فاتحة "سورة الماعون"[(١)]

تربط هذه السورة في أسلوب معجز بين حقيقة من حقائق العقيدة الإسلامية، وهي الجزاء في الآخرة، وبين مساوئ الأخلاق والأعمال المنبعثة من عدم التصديق بهذه الحقيقة وذلك بقصد التنبيه على أن التكذيب بالجزاء في الآخرة يجعل المكذب يستهين بعظائم الأمور مما ينعكس على سلوكياته وأعماله.

يقول سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣].

مقصود السورة:

يقول الإمام البقاعي: "مقصودها التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث، فإنه يجرئ المكذب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال حتى تكون الاستهانة بالعظائم خلقاً له فيصير ممن ليس له خلاق، وكل من أسمائها الأربعة في غاية الظهور في الدلالة على ذلك، بتأمل السورة لتعرف هذه الأشياء المذكورة، فهي ناهية عن المنكرات بتصريحها، داعية إلى المعالي بإفهامها وتلويحها"[(٢)].

فتراكيب هذه السورة تعبر عن منكرات منهى عنها بقصد التحذير منها والتعجب من حال مرتكبيها، ومآل المعاني في كل ذلك: هو الدعوة إلى التمسك بحقائق الدين وفهمها حق الفهم ليبلغ المؤمن بذلك معالي الدرجات، بالتحلي بمكارم الأخلاق وفعل الطاعات، والابتعاد عن مساوئ الأخلاق وعمل المنكرات.

---

(١) سورة الماعون: وتسمى سورة الدين، وتسمى أرأيت، والتكذيب.
قيل: إنها مكية، وقيل: مدنية، وقيل: بعضها مكي الآيات: ١-٣، وبعضها مدني: الآيات ٤-٧.
نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون وآياتها سبع آيات. [ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٥٤١/٨، و التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥٦٣/٣٠].

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٥٤١/٨.

علاقتها بما قبلها:

في سورة قريش وكذا سورة الفيل قبلها عدد الله تعالى نعمه على قريش وذكرهم بعظيم فضله عليهم، مما يستوجب شكره والإيمان بما أنزله على رسوله ﷺ، ومن جملة ما جاء به محمد ﷺ الحث على الإيمان بالبعث والجزاء.

ولما كانت قريش لا تؤمن بالبعث والجزاء أتبع امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه وعقابه[(١)]، وذلك بكشف حال المكذب بالجزاء، وبيان سوء فعله، والتعجب من أمره.

ومآل ذلك الكشف والبيان يعود إلى حث الناس على الطاعة والتحلي بمكارم الأخلاق، وتلك نعمة تستوجب الشكر والإيمان بكل ما جاء به محمد ﷺ ومنه البعث والجزاء.

وشكر نعمة الله وإفراده بالعبادة الذى ختم به "سورة قريش" لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالى الأخلاق الناهى عن مساوئها[(٢)] ومن ثم جاء التعجب ممن يكذب به في أول هذه السورة.

معانى الاستفهام في صدر " سورة الماعون":

ارتبط تأويل العلماء لمعنى الاستفهام في صدر هذه السورة بآياتها ووقت نزولها:

- فالإمام الزمخشرى: يرى أن معنى الاستفهام هنا التخويف والتحذير من المعصية حيث يقول: "والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه (فذلك الذى)... فما أشده من كلام وما أخوفه من مقام وما أبلغه في التحذير من المعصية، وإنها جديرة بأن تستدل بها على ضعف الإيمان، ورخاوة عقد اليقين"[(٣)].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٥٥٢/١٠.
(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٥٤١/٨.
(٣) الكشاف للزمخشرى ٢٨٩/٤.

- والإمام الرازى : يذكر أن معناه التعجب على سبيل المبالغة يقول: "واعلم أن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب، كقولك : أرأيت فلاناً ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه ؟"[١].

- وذكر الشيخ أبو حيان : أن همزة الاستفهام فيه تدل على التقرير والتفهيم ليتذكر السامع من يعرفه بهذه الصفة[٢].

- والإمام أبو السعود: يرى أن معناه تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجب منه[٣].

ومما يضاعف من تشويق السامع وإثارته اتساع معنى كلمة (الدين) فقد ذكروا أن الدين هو : المعاد والجزاء ، والإسلام ، وغير ذلك[٤].

- وذكر الشيخ الصاوى أن معناه التوبيخ لكفار مكة وذلك على القول بأن جميعها مكى[٥].

والمهم أن الاستفهام هنا خرج عن حقيقته ليعبر عن كل تلك المعاني بقصد إثارة كل نفس تسمع هذه الآية لتفتش عن هذا الذى يكذب بالدين، ولتكون في أقصى درجات اليقظة والانتباه والترقب، فإذا جاء الجواب تمكن فيها واستقر، وتلك هي قيمة التعبير بأسلوب الاستفهام دون غيره من الأساليب التى تعبر عن التعجب والتشويق والتهديد والتوبيخ.

وبذا يكون ما جاء بعدها من آيات تفصيلاً للجواب، وتحديداً لحيرة النفوس التى أثارها التعبير بأسلوب الاستفهام .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١١٢/٣٢، وقد تبعه في ذلك الطاهر بن عاشور [ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥٦٤/٣٠].

(٢) البحر المحيط ٥٥٢/١٠.

(٣) تفسير أبو السعود ٥٥٤/٤، ط.دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

(٤) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٠٥، وروح المعاني للألوسي ٣٠/ ٤٣٥.

(٥) ينظر: حاشية الصاوى على الجلالين ٣٥٥/٤ ، ط.دار الجيل ، بيروت.

البناء التركيبي لجملة الاستفهام :

وقد جاء بناء جملة الاستفهام في صدر هذه السورة كالآتي:

همزة الاستفهام + الفعل (رأى)+ الفاعل (التاء)+ المفعول به (الذى يكذب بيوم الدين).

وهمزة الاستفهام هنا داخلة على الجملة الفعلية المثبتة، للسؤال عن الفعل، فهي للتصور.

والاستفهام هنا ليس على حقيقته ومن ثم تعددت تأويلات العلماء في الكشف عن معناه المقصود متأثرة في ذلك بالسياقين التنزيلي والترتيلي، وبقرائن الكلام ومتعلقات جملة الاستفهام كما سبق أن بينا.

قوله (أرأيت) بمعنى أخبرني، فيتعدى الفعل لاثنين أحدهما: (الذى) والآخر: محذوف قدره الزمخشري: من هو[١] ويدل على أنه بمعنى أخبرني قراءة عبد الله "أرأيتك" بكاف الخطاب لأن كاف الخطاب لا تلحق البصرية[٢].

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية، ولعل هذا هو الألصق بمعنى الاستفهام التعجبى وهو الألصق بالسياق، فإن المكذبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة فنزلت شهرتهم بذلك منزلة الأمر المبصر المشاهد[٣].

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ، وقيل بل خطاب لكل عاقل، أى : أرأيت يا عاقل هذا الذى يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض ؟ فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا؟[٤]

وقرا بعضهم (أريت) بحذف الهمزة من الفعل، والاختيار ـــ كما يقول الزجاج (أرأيت) بإثبات الهمزة الثانية، لأن الهمزة إنما طرحت للمستقبل في : ترى، ويرى،

---

(١) ينظر: الكشاف ٢٨٩/٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٥٥٢/١٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥٦٥/٣٠.

(٤) ينظر: تفسير الفخر الرازى ١١٢/٣٢.

(أرأيت) و(أريت) فقد رأيت الناس يصح عن العرب فيها (أريتك) و(أرى) (رأيت) والأصل (رأيت) (أرأيت) ... إلقاء الهمزة، والاختيار إثباتها(١)

لأن ألف الاستفهام لما كانت في أول الكلام سهلت إلقاء الهمزة.

وقرأ عبد الله بن مسعود (أرأيتك) بكاف الخطاب كقوله تعالى:

﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾ [الإسراء: ٦٢]

وهذه القراءة تقوي معنى العلمية في الرؤية.

قوله (الذي يكذب بالدين) المفعول الأول لفعل الرؤية وجاء بالاسم الموصول بقصد كشفه وتعريته وتقطيع فعله وإبراز شناعته، وفيه أيضاً حض كل سامع على ترقب وانتظار معرفة الجواب، وكأن لسان حالنا يقول: من هذا الذي يكذب بالدين؟ وفي ذلك تأكيد لمعنى التعجب والتشويق الذي أفاده أسلوب الاستفهام والتعبير بالفعل المضارع (يكذب) يوحي أن هذا هو فعله المتجدد ودأبه المستمر وذلك ينطبق على الكفار من أهل مكة.

وعبر عن الجزاء بـ(الدين) لبيان علو منزلة الإيمان به في العقيدة الإسلامية.

ونستطيع أن نخلص مما سبق بالآتي:

أولاً: شدة الارتباط بين أسلوب الاستفهام وآيات السورة، وهذا يؤكد أن أسلوب الاستفهام ليس حالة طارئة على التركيب بل هو داخل في نسيجه متفاعل معه، وأن دلالة جملة الاستفهام مرتبطة بعدة عناصر منها السياق وقرائن الكلام ونوع الأداة وغير ذلك.

ثانياً: إسهام القراءات القرآنية في كشف جوانب المعنى في البيان القرآني.

ثالثاً: الاستفهام هنا وإن كان ظاهره التقرير إلا أن المراد به التعجب والتوبيخ، ومآل المعنى في كل ذلك: التفهيم والتعريف وتلك هي المنة العظيمة التي تستوجب الشكر.

رابعاً: تأويل الرؤية هنا على أنها بصرية هو الألصق بالسياق وبمعنى الاستفهام التعجبي.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/٣٦٧، تحقيق عبد الجليل شلبي، ط. عالم الكتب، الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة المباركة في رياض البيان القرآني والتي قضيت فيها حين طوافي في معاني وأسرار بلاغة الاستفهام في فواتح سور القرآن الكريم يمكن أن نستخلص أهم نتائج هذه الدراسة وأبرز ثمار هذه الجولة المباركة في الآتي:

أولاً: شدة الترابط بين أسلوب الاستفهام وآيات السورة التي يتصدرها الاستفهام، مما يؤكد أن الاستفهام ليس حالة طارئة على التركيب بل هو داخل في نسيجه متفاعل معه، وأن دلالة جملة الاستفهام مرتبطة بعدة عناصر منها: السياق، وقرائن الكلام، ونوع الأداة وغير ذلك.

ثانياً: أن تعدد تأويلات العلماء لمعنى الاستفهام يرجع إلى أن معاني الاستفهام استنباطية تذوقية، يدركها الذوق المتأدب متأثراً بموهبته وتكوينه الفكري والثقافي.

ثالثاً: معاني الاستفهام تحتاج في إدراكها إلى عمق إحساس النفوس بها وتفاعلها، إذ هي أشبه بالأسرار الغامضة التي لا تتكشف إلا بعد طول تأمل وتدبر.

رابعاً: تلاحم الألفاظ والتراكيب في تدعيم المعاني المقصودة من أسلوب الاستفهام في فواتح السور القرآنية.

خامساً: المعاني التي يفيدها أسلوب الاستفهام وبمعونة السياق والقرائن ليست على درجة واحدة في الظهور والخفاء.

سادساً: تنوع معاني صيغة الاستفهام الواحدة تبعاً لتنوع سياقها وقرائنها، وهذا يؤكد أن الصيغة تكتسب معناها من سياقها وما يصاحبها من قرائن وقيود.

سابعاً: لكل أداة في اللغة دلالتها الخاصة ومذاقها الذي يدركه أهل التذوق الأدبي.

ثامناً: أن تعدد القراءات في الآية مما يعين على تفهم جوانب المعنى ويسهم في اكتمال صورته.

تاسعاً: الجملة الحالية عنصر مهم في التركيب، وفي تأدية المعنى المراد، فهي متلاحمة مع أجزاء الكلام وليست فضلة فيه كما يقول النحاة.

عاشراً : أن إثبات أمر البعث والمعاد والاستدلال على قدرة الله تعالى على ذلك يمثلان محور المعانى في سور "الإنسان والنبأ والغاشية".

أما سور " الشرح والفيل والماعون" فتلتقى في التذكير بنعم المولى عز وجل وفي الحض على شكر المنعم سبحانه.

حادى عشر : التلاقى في مآل المعنى محقق صحة العطف بين الخبر والإنشاء ، على الرغم مما بينهما من فارقات .

ثانى عشر : تكامل المعانى وترابطها وتناسلها بين آيات وسور القرآن الكريم.

ثالث عشر : أسهمت أساليب : (البيان بعد الإبهام، والاستعارة، والحذف، والإيجاز، والتقديم، والتعريض) في كشف معانى الاستفهام وتقوية مقصوده وتدعيمه.

.. تلك بعض ثمار هذه الدراسة التى أسأل الله أن ينفعنا بها ويجعلها عوناً لنا في طريقنا إلى إتقان فقه البيان القرآنى والسير على هديه ، حتى نحظى برضا الله تعالى وتوفيقه .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى الصراط المستقيم .

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ــ مطبعة البابي الحلبى ــ مصر ــ ١٩٥١.

٢. أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د:عبد الحليم حفنى ــ ط.الثالثة ــ ١٩٩٥م ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣. أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلى د:حسنى عبد الجليل ــ ط.دار الثقافة للنشر والتوزيع ــ القاهرة.

٤. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ــ ط.المكتبة التوفيقية ــ القاهرة.

٥. الأغانى لأبي فرج الأصفهانى ــ ط.دار الثقافة ــ بيروت.

٦. الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب ــ تحقيق موسى بناى علي.

٧. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ــ ط.الأولى ١٤٠٥هــ ١٩٩٣م ــ مطبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت .

٨. بحر العلوم (تفسير) لأبي الليث السمرقندى ــ ط.دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤١٣هــ ١٩٩٣م.

٩. البداية والنهاية لابن كثير ــ ط.الأولى ١٤١٥هــ ١٩٩٤م ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان.

١٠. البرهان في علوم القرآن للزركشى ــ بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-المكتبة العصرية- بيروت.

١١. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ــ د:محمد أبو موسى- الطبعة الثانية - ١٤٠٨هــ ١٩٨٨م - مكتبة وهبة.

١٢. التذكرة في معانى النحو د:محمود توفيق ــ "كتاب دراسي".

١٣. التطور النحوى للغة العربية ــ برجشتراسر ــ مراجعة د/رمضان عبد التواب ــ مكتبة الخانجى بالقاهرة ــ دار الرفاعى بالرياض.

١٤. تفسير أبي السعود ــ ط.دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ١٤١١هــ ١٩٩٠م.

١٥. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي- ط.دار الفكر - بيروت ١٤١٢هــ ١٩٩٢م.

١٦. التفسير البلاغى للاستفهام في القرآن الكريم د:عبد العظيم المطعنى- ط.الأولى ــ ١٤٢٠هــ ١٩٩٩م ــ مكتبة وهبة.

١٧. تفسير التحرير والتنوير - للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور - ط.الدار التونسية.

بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

١٨. تفسير الفخر الرازي — ط.دار الفكر —

١٩. تفسير القرآن العظيم لابن كثير — ط.الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م — المكتبة العصرية — صيدا — بيروت.

٢٠. جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري — ط.دار الفكر — بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٢١. حاشية الأمير على مغني اللبيب — مطبعة البابي الحلبي — القاهرة.

٢٢. حاشية الدسوقي على شرح السعد — ط.دار السرور — بيروت — (ضمن شروح التلخيص).

٢٣. حاشية السيد الشريف على الكشاف — ط.دار الكتب العلمية — بيروت.

٢٤. حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي — ط.دار إحياء التراث العربي — بيروت.

٢٥. حاشية الشيخ محي الدين زاده على البيضاوي — ط.دار صادر — بيروت — نشر:المكتبة الإسلامية — تركيا.

٢٦. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين — ط.دار الجيل — بيروت.

٢٧. حاشية عبد الحكيم على المطول — مطبعة عباس.

٢٨. خصائص التراكيب د: محمد أبو موسى — ط.الثالثة — مكتبة وهبة.

٢٩. الخصائص لابن جني — ط.الهيئة العامة لقصور الثقافة — مصر.

٣٠. الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح لابن أبي الإصبع المصري — تقديم وتحقيق د/حفني محمد شرف — مطبعة الرسالة — القاهرة ١٩٦٠م.

٣١. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر — تحقيق : محمود محمد شاكر — الطبعة الثالثة — ١٤١٣هـ ١٩٩٢م — مطبعة المدني بالقاهرة.

٣٢. دلالات التراكيب — دراسة بلاغية للدكتور/ محمد محمد أبو موسى — ط.الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م — مكتبة وهبة .

٣٣. ديوان كثير عزة — تحقيق: قدري مايو — ط.الأولى — ١٤١٦هـ ١٩٩٥م — دار الجيل — بيروت.

٣٤. رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي — تحقيق : أحمد محمد الخراط — مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق — ١٩٧٥م.

٣٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي — ط.دار الفكر — بيروت — ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٣٦. سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي — تحقيق: علي فودة — مطبعة الخانجي — القاهرة — ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٣٧. سنن الإمام الترمذيط. دار الفكر — بيروت — ١٩٨٣م

٣٨. السيرة النبوية لابن هشام — ط.دار المنار للنشر والتوزيع — القاهرة.

٣٩. شرح التسهيل لابن مالك — تحقيق د/عبد الرحمن السيد — د/محمد بدوي المختون — ط.الأولى — ١٤١٠هـ ١٩٩٠م — دار هجر للطباعة والنشر.

٤٠. شرح كافية ابن الحاجب للاستراباذي — ط.دار الكتب العلمية — بيروت ١٩٨٥م.

٤١. الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس — تحقيق/ السيد أحمد صقر — مطبعة عيسى الحلبي — القاهرة — ١٩٧٧م.

٤٢. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي — ط.دار السرور — بيروت (ضمن شروح التلخيص).

٤٣. الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري — الطبعة الرابعة — ١٤٠٠هـ بيروت

٤٤. في ظلال القرآن — سيد قطب — دار الشروق.

٤٥. القرآن الكريم وتفاعل المعاني د:محمد محمد داود — ط.دار غريب — القاهرة — ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

٤٦. الكتاب لسيبويه — تحقيق/ عبد السلام محمد هارون — ط.الثالثة — ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م — دار الكتب العلمية — بيروت.

٤٧. كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري — ط.ثانية — ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م — دار الكتب العلمية — بيروت.

٤٨. كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي — ط.أولى — ١٤١٥هـ ١٩٩٥م — دار الكتب العلمية — بيروت.

٤٩. الكشاف للزمخشري — ط.دار الفكر — بيروت

٥٠. لسان العرب لابن منظور — ط.دار الفكر — ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٥١. المجاز في اللغة والقرآن د:عبد العظيم المطعني — ط.مكتبة وهبة — الطبعة الأولى.

٥٢. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ـ ط.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

٥٣. مختصر العلامة سعد الدين على تلخيص المفتاح ـ ط.دار سرور ـ بيروت ـ لبنان "ضمن شروح التلخيص".

٥٤. مدخل إلى كتابي عبد القاهر د/محمد أبو موسى ـ ط.الأولى ـ ١٤١٨هـ مكتبة وهبة.

٥٥. مسالك العطف بين الخبر والإنشاء للدكتور/ محمود توفيق سعد ـ ط.أولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ـ مطبعة الأمانة.

٥٦. مسند الإمام أحمد ـ ط.دار الفكر ـ بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٥٧. مشكلة الحياة د:زكريا إبراهيم ـ ط.مكتبة مصر بالفجالة.

٥٨. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ـ تحقيق د:عبد السميع محمد أحمد ـ ط.الأولى ـ ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م ـ مكتبة المعارف بالرياض.

٥٩. المطول لسعد الدين التفتازاني ـ مطبعة أحمد كامل ـ ١٣٣٠هـ.

٦٠. معاني القرآن للفراء ـ تحقيق/ محمد علي النجار ـ دارالسرور ـ بيروت.

٦١. معاني القرآن وإعرابه للزجاج ـ تحقيق: عبد الجليل شلبي ـ ط.عالم الكتب بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٦٢. معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٦٣. مغني اللبيب لابن هشام ـ ط.البابي الحلبي ـ القاهرة.

٦٤. مفتاح العلوم للسكاكي ـ تحقيق: نعيم زرزور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٥. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ ط.دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٧٠.

٦٦. المقتضب للمبرد ـ تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة ـ ط.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر ـ ١٣٩٩هـ.

٦٧. من أسرار حروف الجر د/محمد الأمين الخضري ـ ط.الأولى ـ ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ـ مكتبة وهبة.

٦٨. منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ـ تحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة ـ ط.دار الكتب الشرقية.

٦٩. منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة د:محمود توفيق سعد ـ مطبعة الأخوة الأشقاء.

٧٠. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ـ ط.دار السرور ـ بيروت ـ

(ضمن شروح التلخيص).

٧١. موطأ الإمام مالك ـ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ـ ط.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٧٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ـ تحقيق/ عبد الرازق غالب المهدي ـ ط.الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٣. النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي ـ ط.مكتبة الآداب ـ القاهرة.

المخطوطات والدوريات:

٧٤. علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم ـ للباحث: إبراهيم صلاح الهدهد ـ مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة برقم (٢٩٨٧) ـ دكتوراه.

٧٥. هل وأسرارها في القرآن الكريم: للباحث: فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ـ مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة برقم (١٩١٠) ـ ماجستير.

٧٦. مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ـ العدد الخامس ـ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.